٣٣. كيف، ولماذا، وقع النسخ فى القرآن...؟

للنسخ معنيان : أحدهما سائغ لا ريبة فيه ، وهو تخصيص عام أو تقييد مطلق ، أو إظهار حكم ما بطريق التدرج .

والثانى محو حكم سابق بآخر لاحق ، وهو عند التحقيق العلمى لا وجود له فى القرآن الكريم . .!!

ونسوق الأمثلة الشارحة لما ذكرنا ، المرأة إذا فقدت زوجها وجبت عليها عدة وفاة مقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام ، كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾(1) . . . لكن هذا الحكم العام عرض له استثناء ضيق دائرته ، فإن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، ولو بعد يوم من الوفاة! قال تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾(2) .

كلتا الآيتين لها موضعها الذى تعمل فيه ، وحكمها باق إلى قيام الساعة . .!

وحرم الإسلام أكل «الدم» وجاء ذلك فى الآية : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ . . . ﴾(3) إلخ . ثم جاءت آية أخرى تكشف أن الدم المحرم هو السائل من الذبيحة ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾(4) إلخ فعلم من ذلك أن الشارع يبيح أكل الكبد والطحال وكان العرب يعدونها من الدم ، فتقييد الدم المحرم بصفته المذكورة!

أما التدرج فى الكشف عن حقيقة حكم ما ، فإنه يبدأ تلويحا يفهمه الأذكياء ، ثم

(1) البقرة : ٢٣٤ .
(2) الطلاق : ٤ .
(3) المائدة : ٣ .
(4) الأنعام : ١٤٥ .

تزداد الإبانة بما يكاد يوحى بالحكم ، ثم يجيء الحكم حاسما بالمعنى المراد ، وقد تم تحريم الربا والخمر بهذا الأسلوب المتأنى ، وليس فى القرآن نص بإباحة الخمر أو الربا!

وعندما يقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ . . . ﴾(1) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ !!(2) .

وعندما يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾(3) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾(4) .

إن هذا التدرج كان الطريقة المثلى لفطام الناس عن رذائل ألفوها وأدمنوها وتعصبوا لها ، وقد حاولت الولايات المتحدة تحريم الخمر بقانون صارم مرة واحدة ففشلت فشلا محزنًا ، بصورة أشنع!! وتبين أن الشارع الإسلامى أذكى وأحكم . .!!

ومنفعة الميسر أن ريحه كان يزمى للفقراء ، ومنفعة الخمر ما يشعر به الشارب من نشوة وغيبوبة ينسى فيها أحزانه . . . إلى حين ، أو ما يحسه من دفء كاذب!

وكفة الإضرار أرجح ، والقانون الشرعى «للأكثر حكم الكل ، وما قارب الشيء يعطى حكمه . .»!

وبعض المفسرين رأى أن الآيات الأخيرة فى الخمر والربا ناسخة لما نزل قبلها من آيات ، متوهما أن بينها تعارضا ، وهذا خطأ فلا تعارض ولا نسخ . . .

بيد أن حمى النسخ أصابت قوما من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلاما غريبًا ، أذكر أنى كنت أقرأ شرح الخازن لسورة الأنعام بدءا من قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾(5) فإذا الرجل يقول : الآية منسوخة ، وبعدها قال تعالى : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾(6) فإذا هو يقول : الآية منسوخة!

(1) الروم : ٣٩ .
(2) البقرة : ٢٧٥ .
(3) البقرة : ٢١٩ .
(4) المائدة : ٩٠ .
(5) الأنعام : ١٠٤ .
(6) الأنعام : ١٠٦ .

ولا أدرى بدقة كم آية نسخها فى صفحة واحدة!!

وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات ، وهذا كلام منكر ، وقد رفضه الراسخون فى العلم ، والشبهة التى قامت فى ذهن الخازن ـ غفر الله له ـ أنه ظن آيات الجهاد تعارض الآيات التى ذكرها ، وهو ظن مستبعد! . .

بل إن البعض يرى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(1) ناسخا لقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾(2) كأنَّ بين الآيتين تناقضًا ، ولا تناقض إلا فى دماغه هو!!

لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون فى مهازل ، وعلة هذا أنهم بعيدون عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة فى طول القرآن وعرضه ، أو كان استكشافا للوحدة التى تشمل أجزاء السورة ، والتى تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم ، متعانقة المعانى والأهداف . .

وعلى أية حال ، فما من آية فى كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها ، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾(3) قال كثيرون : كان الحكم الشرعى أن يثبت الواحد لعشرة من الأعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين!

وقال المحققون : الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد أمام عشرة مادام قادرًا صابرًا آملاً فى النصر أو راغبا فى الشهادة ، على أن له رخصة أخرى إن عجز ، وهى أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو أبدًا دون ذلك . . . قالوا : والرخصة هنا كقصر الصلاة فى السفر ، فالقصر فى السفر لا ينسخ الإتمام فى الإقامة . . .

وما دام لم يرد قول بنسخ إلا ورد معه قول بإحكام ، فلنستبعد إبطال الآيات ولنقرر أنه لا نسخ فى القرآن الكريم أبدًا ، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج فى التشريع .

قد يقال : أليس يقول الله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . . ﴾(4) .

(1) التغابن : 16 . (2) آل عمران : 102 .
(3) الأنفال : 66 . (4) البقرة : 106 .

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق فى تفسير هذه الآية ، ونقلت رأيه مع تعليقات لى فى كتابى «نظرات فى القرآن الكريم» ، وخلاصته أن الآيات نوعان تكليفية وتكوينية .

والمقصود بالآيات التكوينية خوارق العادات التى يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾(1) وقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾(2) .

أما الآيات التكليفية ، فهى كلمات الله المتضمنة هداه لعباده ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾(3) وقوله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾(4) .

والنسخ يقع فى الأولى ولا يقع فى الأخرى ، فإن المعجزة التى تصلح لأمة ، لا تصلح لأخرى ، ولاشك أن المعجزة الأخرى ، التى أيد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التى أيد بها الأنبياء السابقين .

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية محددة ، وجاء بعد قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها . . ﴾ إلخ . مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾(5)!

بل إن آية ﴿ ما ننسخ من آية . . . ﴾ اتصل بها قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾(6)؟ وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس فى آيات تكليفية أو أحكام شرعية ، وإنما هو فى حقيقة المعجزة التى تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم ، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الإنسانية التى ميز الله بها محمدًا ﷺ ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال!

(1) الأنعام : 109 . (2) الإسراء : 59 . (3) الجاثية : 7 ، 8 .
(4) يوسف : 1 . (5) البقرة : 118 . (6) البقرة : 108 .

وخلال الحديث عن الوحدة ، وكشف
الحسنى ، وأوصافه العلى ، تتشعب ا
استغناء العالم عن ربه ، وقيامه بنفسه .

أى إن شرح حقيقة التوحيد فى
شبهات الملحدين ، وبنلك تتعانق أدل
نسق فذ!

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز ، يقو
﴿ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُو
مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2]
أوجد العالم من عدم ، فهو بارئه ومبدع
أن العالم مخلوق أنه برز من العدم إلى
عالم . . . إلخ ، إن الصفر لا يصنع شي
العالم كان معدومًا ثم عراه الوجود من غ

والخلق من لا شىء ليس عملاً تافها
مغفل! إن الخلق عمل هائل وإذا كان
متخصصين مهرة ـ وهذا عمل دون الخ
أجنح إلى خيال بعيد ، ولكننى أسأل : إ
لم تعرف لها إلى اليوم نهايات ، أفلا يكو
والله أكبر!

الأمر هنا ليس نفيا للشركاء! فإن الش
يزعموا لأحجارهم شيئًا ، والصابئون بجنو
خلقوا شيئًا ، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

ولا يسوغ لأحد أن ينتظر من القرآن
هى موضع الأخذ والرد والقبول والإنك
يتناول أوهام الجهال بما يدمغها ، وأن يدوس

(١) الزخرف : ٩ .
(٢) الزخرف

ومن الشائعات التى انطلقت فى ميدان النسخ أن هناك قرآنا أنزل ثم سحب! والمعروف فى ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذى يفيد اليقين ، وأن خبر الواحد لا يثبت قرآنا أبدا ، فالزعم بأن قرآنا كان ، ثم رفع كلام لا يلتفت إليه . .

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكاما جاءت فى السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . . ﴾[1] .

واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآنى ، وإنما كان بإلهام إلهى عن طريق السنة التى يهدى إليها قلب الرسول الكريم ، ولم يكن ذلك اجتهادًا شخصيا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾[2] .

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم ، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش ، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾[3] .

(١) البقرة : ١٤٤ . (٢) البقرة : ١٤٣ . (٣) الممتحنة : ١٠ .

٣٤. هل الاستدلال القرآنى فى قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد؟

إن الطفل الذى يودع فى أحد الملاجئ قد يفكر فى أبيه عندما يكبر ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجرى فى خاطره أبدا أنه جاء الدنيا من عدم ، أو ظهر على الأرض من غير أب !!

والبشرية فى أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما أخطأت الطريق إليه ، فقد تعبد اسما لا حقيقة له ، وقد تعبد حجرًا موهوم الضر والنفع ، وقد تعبد عجلا أو تقدس بقرة أو تؤله نهرا ، وقد يجىء من يرفض هذه الآلهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيد!!

إن قضية الألوهية فى التاريخ الإنسانى يكتنفها قدر من الغموض ، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير ، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل ، أو الكائنات التى تنتمى إليه على نحو ما ، ويخيل إلى أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التدين الخرافى ، ورفض العقل السجود لحجر أو حيوان أو إنسان . .

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع فى عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمى وانتشار تدين مغشوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا أنصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الألوهية يتسم بالوضوح الشديد ، فهو ينفى الشركاء بحدة وحسم ، وينفى أن يكون هناك أحد فوق مستوى العبودية لأن له بالله صلة خاصة ، لا ، هو إله واحد ، وكل ما عداه عبد له ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[1] .

(١) مريم : ٩٣ ـ ٩٥ .

القضية ، إنه يبنى العلائق بالله على نحو يربط الناس بخالقهم ، ملك الأسماع والأبصار والأفئدة مدبر الأمور كلها ، الذى لا راد لحكمه ، ولا مهرب من قضائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجير عليه .

ومن رحمة الله بخلقه أنه يفتح عيونهم على آياته ليعرفوه من خلال نظرهم فى هذا العالم الذى يعيشون فيه . .

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾(١) .

الجملة الأولى فيها تأسيس لعقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والآية كلها تمهيد للحديث عن مجالى الوجود الإلهى فى آفاق العالم ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

فى هذه الآية تنبيه للعقلاء إلى أن كل شىء فى الكون يشير إلى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على أسلوب السرد المجمل ، لكننا نرى التفصيل فى مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾(٣) بعد هذا التفصيل لنزول الغيث إلى مترقبيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للإنسان : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . ﴾(٤)؟ كأنه يقود المرء إلى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بين سمعه وبصره! هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القدرة ، وهذه مظاهر العلم . وهذه . . . إلخ ، كل شىء يشهد لله ويوجه إليه !!

(١) البقرة : ١٦٣ . (٢) البقرة : ١٦٤ .
(٣) الروم : ٤٨ ، ٤٩ . (٤) الروم : ٥٠ .

وكما قال للإنسان انظر . . قال للناس : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

ومما يعين على فهم الأسلوب القرآنى أن تتذكر حقيقة فلسفية معروفة هى أن العالم ليس له من ذاته وجود! إن وجوده طارئ عليه من الخارج! أترى المصباح الكهربائى عندما تغمز «الزر» فيضىء؟ إنه لا يضىء أبدا من ذاته ، لابد من تيار خارجى يسرى فيه ليتوهج! إنه معد فقط للاستقبال ، وإشعاع ما يجيئه من جهة أخرى ، كذلك الكون ، إن وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من أعلى ، وإذا انقطع التيار الذى يمده تلاشى ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾(٢) .

وعندما يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى آيات الله فى الأرض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الإيجاد والإمداد معًا ، ولا بأس أن يضم إلى ذلك إشعارًا بأنه الله الواحد ، وأن ما عداه من آلهة مزعومة إفك مبين ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . ﴾(٣) .

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الأعلى فى ثنايا توحيد الله وتمجيده ، فالله أعظم وأعز من أن يكون إثبات وجوده أمرًا يفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفتقر إلى البرهان .

(١) الأنعام : ٩٩ . (٢) فاطر : ٤١ . (٣) غافر : ٦٤ ، ٦٥ .

٣٥. ما أهمية القصص فى القرآن، وهـل لهـا أصل تاريخى، وما الحكمة فى تكرارها؟؟

لابد من دراسة الماضى والتفرس فى أحداثه ، فإن هذه الأحداث ليست ملكا لأصحابها ، وإنما هى ملك الإنسانية جميعًا ، يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ، ويستخلصوا منها النتائج ، ويضعوها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء . . .

وظاهر أن سير الأفراد والأمم يخضع لسنن دقيقة ، وأن ازدهار الحضارات وانطفاءها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء! وإنما يقع وفق قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادًا ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذو لب ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾(١) وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾(٢)! وقال : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾(٣) .

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية فى عمومها وانطباقها على شتى الأمكنة والأزمنة ، فقانون الأجسام الطافية مثلاً يشمل جميع الأنهار والبحار ، وانهيار الأمم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الأجناس والعصور ، وقد هدد الله العرب

(١) طه : ٩٩ .　(٢) طه : ١٢٨ .　(٣) الأعراف : ١٠١ .

بالمصير الكالح إذا بقوا على عنادهم ومكرهم ﴿ . . . وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(١) .

وسنن الله الكونية لا تحابى أحدًا ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهى منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة أُحُد لأن المسلمين لم يلتزموا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وإن واتته مؤقتًا ظروف مساعدة . قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾(٢) .

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها فى تضاعيف القصص التى ذكرها أو فى خواتيمها مثل قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣) وقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٤) وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾(٥) . . . إلخ .

إن القصص القرآنى سرد واع موجه للتاريخ الإنسانى ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق! بل الغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعانى بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع أدب القصة فى عصرنا شيوعًا يستحق الدهشة ، وامتلأت الأيدى بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض! وجملة هذه الروايات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون إثارة وضيعة .

والبون شاسع بين هذه الأقاصيص ، وبين التاريخ الذى يجسده القرآن الكريم ويغزو به الألباب والبصائر ليمحو الغفلة ويرفع المستوى ويضىء السبل ، البون بعيد بعيد .

(١) فاطر : ٤٣ .　(٢) آل عمران : ١٣٧ - ١٤٠ .　(٣) القصص : ٨٣ .
(٤) يوسف : ٩٠ .　(٥) الرعد : ١٧ .

عندما يقول الله لنبيه : ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) فهو يقول ذلك فى أعقاب سرد لواقع لا ريب فيه ، فقد ذكر فى هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع أممهم التى ظهرت فى عصور متعاقبة ، وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة حتى أهلكتهم أمة بعد أخرى .

وهو يحكى ذلك إرهابًا للعرب المستكبرين وتسلية للنبى وتسرية له! ، وفى موضع آخر يقول له : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾(٢) فأين موضع الخيال فى هذه الوقائع؟؟

وبعد أن قص الله سبحانه قصة يوسف ، وشرح أطوار حياته منذ اختطف إلى أن صار ملك مصر ، قال عنه وعن غيره من المرسلين : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴾(٣) فأين موضع الخيال هنا؟

إن اتهام القرآن بأنه يعرض خيالات فنية أو يمزج فى سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مساغ له ، وهو فى نظرنا بلاهة نشأت عن أتباع المستشرقين!

والمستشرقون يحسون ما فى كتبهم من غثاثة وعوج وبعد عن الحق ، ويريدون الإيهام بأن القرآن لا يزيد على غيره! وهذا كذب لا يروج عند عاقل . .!!

ومعلوم أن القصة واحدة قد تتكرر فى عدة سور ، غير أن هذا التكرار صورى ، فإن كل قصة تختلف عن الأخرى ، إما فى العناصر الجوهرية التى تتألف منها ، أو فى طريقة العرض الذى يناسب مقتضيات الأحوال . .!

فقصة موسى وبنى إسرائيل فى سورة «غافر» انفردت بالحوار الطويل للرجل المؤمن الذى يكتم إيمانه ، بل هو العنصر البارز فيها .

والقصة نفسها فى سورة «القصص» انفردت بتفصيل السبب فى خروج موسى إلى أرض مدين وزواجه هناك . .!

والقصة فى سورة الكهف انفردت بلقاء موسى مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرب! . .

(١) هود : ١٢٠ . (٢) الأنعام : ٣٤ . (٣) يوسف : ١١١ .

والقصة فى سورة طه انفردت بالحديث عن العصا التى كان موسى يهش بها على غنمه ثم تحولت إلى قوة هائلة فى يده كما انفردت بأدعية موسى وإجابة الله له . . . إلخ .

وقد استطال الحديث فى سورتى البقرة والأعراف عن قصة بنى إسرائيل ، ومع ذلك فإن المنهج غير المنهج ، والنتائج غير النتائج ، وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته على نحو يلائم البيئة المتغايرة ، فالسورة الأولى مدنية والأخرى مكية . . .

وشرح النواحى الفنية والموضوعية فى هذه القصة وحدها يحتاج إلى كتاب عن «اليهود فى القرآن الكريم» مع ملاحظة أن القرآن ليس كتابا فنيا فى الجغرافيا أو التاريخ ، إنه يهتم بالجانب الإنسانى والاجتماعى وحسب!

والحوار المبثوث فى أرجاء كل قصة يساق بحكمة إلى غاية محددة! خذ مثلا قصة شعيب مع مدين فى سورة الأعراف ، لقد جاء فيها هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومه ألا يستبد بهم اللدد فى الخصومة ، وألا يحملهم النزق على ارتكاب ما لا يليق ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾(١) أى دعوا الأمر للزمن ، ولا تتعجلوا العواقب!

فماذا كان الجواب؟ ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾(٢)!!!

وظاهر أن هذا السياق من قبيل إياك أعنى واسمعى يا جارة ، وكأن النبى يقول للعرب المناوئين له : احذروا مثل هذا المسلك فى مصادرة الإيمان ومخاصمة أهله ، فعقباه صيحة من السماء تذركم فى دياركم هلكى كما حدث لقوم شعيب!! ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾(٣) .

ويلفت نظرنا فى تكرار أى قصة أن القرآن الكريم يقلب النفس الإنسانية على شتى جوانبها ، ويعالجها طورًا بالهدوء وطورًا بالصرامة ، طورًا بالشد وطورًا بالرخاء ، والغرض أن تترك باطلها وتقبل على هدايات الله . .

(١) الأعراف : ٨٧ . (٢) الأعراف : ٨٨ . (٣) الأعراف : ٩١ ، ٩٢ .

انظر مثلاً إلى قصة هود مع عاد، إنك ترى هودًا فى سورة الأعراف بدأ هادئًا طويل الأناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(1)!!

فإذا تأملت فى القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبى الحليم يبدأ منددًا بوثنية قومه وحاسما فى كشف كذبهم على الله ومنذرًا بسوء المآل إن هم بقوا على جبروتهم ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾(2)!!

وتفسير هذا أن لقاء أى نبى مع قومه لا يقع مرة واحدة، إنه لقاء يبقى عشرات السنين، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة، بل يأخذ صورًا كثيرة!

وحتى لو وقع لقاء واحد - كما حدث لموسى مع السحرة - فإن كل ما دار من حوار لا يثبت فى عرض واحد، بل توزع أجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة . . .

ومن ثم كان القصص القرآنى مجالا رحبا لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحى حتى قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، ليس المهم تحديد موقع، أو حتى تحديد الشخص! فما يعنينا أن نعرف «هوية» ذى القرنين، أو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى!! المهم تقديم الشفاء النفسانى والاجتماعى من خلال تاريخ صادق وقصص حق.

(1) الأعراف: ٦٥، ٦٦.   (2) هود: ٥٠ - ٥٢.

٣٦. ما تفسير الآيات التى قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا؟ مثل ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾

جلست يومًا أفكر: ما أنا بين الناس؟ قلت: واحد من ألوف مؤلفة تسكن هذه الأرض! سألت مرة ثانية: ما أنا بين من سكنوها منذ الأزل ومن يسكنونها آخر الدهر؟

فشعرت بأنى أتضاءل، وأن وجودى يصغر!

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم؟ إن أرضنا التى نحس ضخامتها ذرة محقورة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة، وما يقدر العلماء أبدًا على معرفة حدود هذا الكون، ولا أن يعرفوا ما يزخر به من أحياء . . !

وشعرت بأنى ازداد تضاؤلا . .! وقلت: يجب أن أعرف قدرى، وألا أعدو حدى، إن الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية . . .

وراقبت بعض الحشرات السارحة فى عالمها الخاص بها وقلت: أتدرى عن عالم الإنسان شيئًا؟ أتعرف ما يجول فى فكره؟ أتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب؟؟ كلا كلا أنَّى لها هذا؟؟

قلت: إن علمى بحقائق الألوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتى! ينبغى أن أعرف قدرى وألا أعدو حدى! إننى نقطة مغموصة فى مساحات رهيبة من الزمان والمكان، كيف تحاول قطرة فى ترعة أن تستوعب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والأنواء؟؟

ورحت مع أبى القاسم القشيرى أناجى ربى بهذه الأبيات:

يامن تقاصر شكرى عن أياديه	وكَلَّ كل لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فردًا.. بلا شبه	علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه	لا كشف يظهره، لا سر يخفيه
لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه	لا حد يقطعه.. لا قطر يحويه
لا كون يحصره، لا عون ينصره	وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلى لا زوال له	وملكه دائم لا شىء يفنيه!!!

إن القرآن الكريم حسم طيش الخيال عندما قال فى التنزيه والتجريد ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾(١) ونحن من بعيد قد نشيم لمعان البرق ، وقد يمر بعقلنا طيف عن أمجاد الألوهية ، لا ندرى مأتاه ، ومع ذلك فإن هذه الخطرات العابرة لا تغنى شيئًا ، بل هى كما قال أبو الفتح البستى :

كل من يرتقى بوهم ... من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى ... منه ، سبحانه مبدع الأشياء

إننى أعد الباحثين فى ذات الله مرضى! فنحن ـ على تفاهتنا ـ لا نعرف من نحن؟ فكيف نعرف الذات العليا؟

والأفهام البشرية فى ذات الله تفاوتت تفاوتا بعيدًا بين التجسيد والتجريد ، فكتاب العهد القديم صوروا الله يبكى ويندم ويمشى ويقعد ويأكل ويشرب ويضرب إلى جانب ما له من صفات رفيعة .

من أغرب الصور أنه جلس مستلقيا على قفاه متمددًا على الأرض واضعا قدمًا فوق أخرى! .

وفلاسفة اليونان المؤلهون ـ فى مقدمتهم أرسطو ـ صوروا الله منزها عن كل شيء ، حتى عن الصفات التى يعلم بها ويقدر بها ، فهو عالم بذاته قادر بذاته وبالغوا فى التجريد حتى كأن الله معنى لا ذات!!

فإذا تجاوزنا الأفهام البشرية إلى الوحى الأعلى ، واستمعنا إلى القرآن الكريم وجدنا أوصافا تقرب معنى الألوهية إلى الحس الإنسانى من غير تجسيد ، وتبلغ بها كمالا لا يتناهى من غير تجريد . .

المسلم يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾(٢) فيشعر بأن الله قريب منه ، مطلع على دخيلته ، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستو على عرشه محيط من وراء خلقه .

إنه يحس بالله دون أن يجسده ، وينزه الله دون أن يفقده . .

والإيمان الحقيقى أن تشعر بأن أصابع القدرة هى التى تحرك قلبك فيدق ، ومعدتك فتهضم!

ماذا قلت ؟ أصابع القدرة ! هل للقدرة أصابع ؟

(١) الشورى : ١١ . (٢) ق : ١٦ .

وهنا ندخل فى مبحث قديم ، قتله المتقدمون تقعرًا وجدلا . . وانقسموا فيه فرقا . . أما أنا فأمر به مر الكرام! وقد قلت فى كتابى «مشكلات . . .» أنا مع السلف من غير تجسيم ومع الخلف من غير تعطيل .

لقد كان طبيعيا أن تجيء فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة جمل يتهيب العقل الغوص فى معناها مثل : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾(١) ، ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(٢) ، ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٣) .

وقد نبه القرآن ـ منذ أنزل ـ إلى أن هناك آيات ينبغى التسليم بها ؛ لأن حقيقتها فوق الفكر العادى ، ومن الزيغ إكثار اللجاجة حولها . . لكن العناد والفراغ خلقا طوائف لا شغل لها إلا هذا اللغو ، فكانت بلاء على الأمة ولا تزال!

إن اللغات على كثرتها من وضع البشر ، وقد ألفوها ليعبروا بها عما يريدون من معان ، وما يستخدمون من أدوات ، وشئون الألوهية فوق اللغات وفوق واضعيها ، فإذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئا يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب .

وإذا كان عبد الله بن عباس يقول : إنه ليس فى الدنيا من أوصاف الجنة إلا الأسماء ، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعها أذن ، فكيف بالحديث عن رب العالم وخالق الجنة والنار؟

إن الرغبة فى فهم حقيقة العرش وحملته! أو كيف يجيء الله فى ظلل من الغمام ، وكيف يجيء والملائكة صفا صفا ، هذا كله نهم مردود ، ومجازفة الذاهب فيها مفقود ، ومن الخير أن يعرف العقل أين ينتج فيتحرك ، وإلا سكن!!

وقد كنا ونحن طلاب ندرس مذهبى السلف والخلف بهدوء ، وبغتة لاحظت فى أيامنا تحاقدًا بين ناس يتبعون السلف ، وناس يتبعون الخلف ، والأمة الإسلامية تكاد تسقط من الإعياء ومن ضربات الأعداء ، فعجبت لانفجار الخصومة فى هذا الوقت العصيب!

وقد رأيت أن أثبت كلاما للدكتور الشيخ محمد عبدالله دراز فى الموضوع لعله يخفف من هذا البلاء قال : «إن كلمة «اليد» فى قوله تعالى :﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(٤) أو كلمة «اليمين» فى قوله : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾(٥) فسرها

(١) البقرة : ١١٥ . (٢) ص : ٧٥ . (٣) الطور : ٤٨ .
(٤) الفتح : ١٠ . (٥) الزمر : ٦٧ .

العلماء المتأخرون بأنها تعنى القدرة ، وهو استعمال مجازى مشهور يقال لا يد لى بكذا ، أى لا قدرة لى عليه ، أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم لا يؤولون هذه الظواهر بل يأخذونها على الحقيقة . والواقع أنهم لايمنعون أصل التأويل ، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علميًا متينًا يدل على علو كعبهم فى الفهم ، وأنا أحب أن أفسره لكم لأنه ينفعكم فى مواضع كثيرة» .

قال : «إنّه لما دلت الأدلة القاطعة على مخالفته تعالى للحوادث ، كان هذا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى المعروف لنا ، فإذن هى مصروفة عن هذا الظاهر ، وكأنه يراد بها معنى مجازى ، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى فى أغلب الآيات ، هل المراد به القدرة ، أم الإرادة ، أم صفة لا نعرفها؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به إلى صفة معينة وإنما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس؟ كل ذلك سائغ فى النظر ، وليس ثم دليل يعين واحدا بخصوصه! لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل ، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذى أراده مع تنزيهه عن المعنى الذى نألفه من صفات المخلوقين!» .

قال : «ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب إليه المتأخرون على أنه احتمال يحتمله الكلام ، ولكنهم لا يلتزمونه التزاما ؛ لأن القول بالالتزام قول بغير دليل ، من أجل ذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر ، واكتفوا بمعناها الإجمالى المصروف عن الظاهر . . . أما طريق الخلف - وهو الخوض فى تحديد التأويلات - فإنما ألجأهم إليه - والله أعلم - ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإبهام ، ودفع الوساوس عن العوام ، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيرًا بما قصدوا ، وغفر لهم تحديد ما حددوا» .

قال : «وجملة القول أن طريق السلف هو الأليق بالعلماء ، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام!!» .

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير ، إننى فى دروسى وعظاتى أتبع مذهب السلف ، وعندما أجادل أهل الكتاب والمادين أنتفع بمباحث الخلف!

وفى كل الأحوال أرفض تجريد الفلاسفة ، وتجسيم اليهود والنصارى ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير . .

٣٧. كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع والأرضين سبع مع حقائق العلم التى ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟

ذكرت فى أكثر من كتاب أنه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم ، فإن العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله ، والدين الحق توجيه آت من عند الله خالق هذا الملكوت ، فكيف يحدث بينهما تكاذب؟

ما أثار التساؤل يرجع إلى أن الناس سمت شيئًا ما دينًا وليس بدين ، أو سمت شيئًا ما علمًا وليس بعلم ! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصيا من أحدّ المتكلمين فى الدين أو أحد المتكلمّين فى العلم ، وما أكثر أخطاء الفريقين!

قال لى أحد الناس : ثبت أنه لا حياة إلا فى أرضنا ، وأن الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها! قلت : هذا التعميم خطأ ، يمكن أن يقال : لا حياة بشرية ، أو لا حياة نباتية ، أو لا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود فى درجات حرارة معينة !!

ومن قال : إن المخلوقات كلها على غرارنا؟ ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1] إنها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلم فينطق بالجهل ، ويبدو أن الأمر كما يقول العقاد : هناك مقلدون فى كراهية التقليد!

قال : تعنى أن هناك حياة فى الكواكب والنجوم؟ قلت : لا أمنع أن هناك حيوات أخرى ، وأستبعد أن تكون الأفلاك حجارة صمّاء موحشة تسبح فى الفضاء ، ليس على أديمها إلا الخراب!!

إن علماء الفلك متفقون - تقريبًا - على أن أرضنا تشبه حبة رمل فى صحراء مترامية الأطراف! فهل هذه الحبة وحدها التى سعدت بالعقل - أو شقيت - وأما بقية الحبات فلا حراك ولا فكر ولا قيمة . . هذا بعيد!!

الذى أشعر به من كتابى أن هذه الأفلاك مشحونة بكائنات راشدة ، تسبح بحمد الله ، وترثى لسكان الأرض ، وتأسى لمآسيهم ومعاصيهم ، وتسأل الله لهم المغفرة ،

(١) الكهف : ٥١ .

قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾[1] قال تعنى أن السموات السبع هذه الأفلاك؟ قلت لا أجزم بشىء فى هذا ، ولا العلم يجزم هو الآخر بشىء عن حقيقة الفضاء ، وطبقاته الذاهبة مع الغيوب ، إن موضوع العلم هو المادة ، وما تولد منها ، فإذا اتصل الأمر بشىء وراء المادة توقف بحثه ، وبالتالى لا يذكر العلم شيئًا يوصف بأنه يناقض الدين . .

الذى أراه ، أو أحس به أننا نتحرك فى إطار معين ، إذا تجاوزناه إلى أعلى أو إلى أدنى لم نصل إلى نهاية ، فى عالم العدد نحن نتحرك داخل مجموعة من الأرقام ، فهل هناك نهاية للعد التصاعدى ، وهل هناك نهاية للعد التنازلى؟؟ لا حدود هنا أو هنا ، لا نهاية لمضاعفات الأرقام من فوق ، ولا لأجزائها من تحت!! وقد عشنا داخل ما أتيح لنا ، وتركنا الفكر فيما وراء ذلك!

إن اللانهاية يعرفها من لا أول له ولا آخر ، يعرفها الله وحده ، ونحن نلقى إليه السلم فيما نعجز عنه ونستريح!!

لا ريب أن العلم المادى تقدم فى عصرنا تقدما عظيما ، ووصل إلى كشوف باهرة ، وأريد أن أقرر أننى استفدت من هذا العلم فى دعم إيمانى ، وأنه زادنى إجلالا لربى!

إن ظلال الأشياء تمتد وتنكمش فى أثناء النهار تبعا لدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، هكذا قرر العلماء ، معنى هذا أن ظلى أنا ، وظل دارى ، وظل عمود الهاتف أمامها ، هذه الظلال تتبع حركة طولها فى الفضاء مائة وخمسون مليون كيلومتر هى مسافة ما بين الأرض والشمس!

قلت : ما أعظم الترابط على بعد الشقة - بين الأرض وأمها ، وما أدل طول الظلال وقصرها على عظمة مثبتها وماحيها ! وتلوت الآية الكريمة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[2] ثم تلوت ما بعدها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3]!!

إن الأسرة الشمسية التى تضم أرضنا تحتوى على نوع من الحياة فيه صلاحية معرفة الله ، والاستقامة على هداه ، ونحن البشر نقدر على ملاحظة آثار القدرة العليا فوق أرضنا المحدودة ، إن ظلال الأشجار المهتزة مع الريح ، تقصر حينا وتطول

(1) الشورى : ٥ . (٢ ، ٣) النحل : ٤٨ - ٥٠ .

حينا ، هى أثر إشعاع قادم من مسافة ١٥٠ مليون كيلومتر ضبطته بالشبر والإصبع حكمة دقيقة ، بديهى أن تكون هذه الأشياء كلها ساجدة لمن أقامها وأدامها . . فهى طوعا أو كرها تسير وفق مشيئته . .

هل يمكن أن تتلاقى هذه الكائنات وأن يعرف بعضها بعضا؟ من يدرى؟ قد يقع ذلك ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[1] .

هناك أمر مستيقن أن بنى آدم مجموعون ليوم لا ريب فيه! وأن هناك جنًا سوف يحاسبون مثلنا لأنهم داخل دائرة التكليف ، أما ما وراء ذلك فلا ندريه ولعله لا يعنينا . . المهم أن هناك سموات معمورة بخلائق أخرى . . وفى الحديث «أطت السماء وحق لها أن تئط - أى ضجت من ازدحامها» .

إن السموات حق ، ولا نعرف كنهها ، والملائكة حق ، ولا نعرف كنهها . . ولم نكلف بذلك ، وليس فى العلم ما ينافى ذلك!! بل إن الملائكة - كما أفاد الدين - موجودة بين الناس ، وهى تؤدى وظائف منوطة بها فى الإحياء والإماتة والمراقبة والتسجيل والإلهام والتخذيل!!

العلم المادى لايدرى ذلك ، وليس فى حقائقه ما يناقضه ، وآفة بعض المنتمين الى هذا العلم أنهم يريدون بالمنطق المادى أن يفهموا ما وراء المادة ، وإلا أنكروه وتلك الحماقة لا يقرها العقلاء!

أما الكلام عن الأرض والأرضين فالسؤال يشير إلى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2] وقد تساءل المفسرون : هل المراد مثلهن فى العدد؟ أم مثلهن فى الإيجاد؟

والعلماء الكونيون يرون أن الأرض ولداتها من المجموعة الشمسية كانت سديما ثم انفصلت أجزاؤه على النحو المعروف الآن ، أى إن أصل الخلق واحد .

وأرجح هذا ، فإن الأرض لم تجئ فى القرآن الكريم إلا مفردة ، أما السماء فقد جمعت كثيرًا جداً . .

وقد يكون المقصود من تعدد الأرضين كثرة طبقات الأرض ، أو ما طرأ على وجه

(1) الشورى : ٢٩ . (٢) الطلاق : ١٢ .

الأرض من تغيرات؟ والمعنى الأخير ساورنى وأنا أقرأ فى علم «الجيولوجيا» هذه العبارات «لعل أحدث فروع هذا العلم وأخطرها أثرًا «جيولوجية» الألواح المتحركة! وهى التى أسفرت عنها دراسة انتقال موجات الزلازل! فقد بينت إلى حد بعيد أن القشرة الأرضية التى يتراوح سمكها بين ٤٠ و ٦٠ ميلا ، والتى كنا نظنها ثابتة ، تتكون من مجموعة من الألواح أو الدروع تغطى مسطح الأرض ، بما فيه قاع المحيط ، وهى فى حركة دائمة بطيئة لا تتعدى نصف بوصة فى العام الواحد!

وهى إما متباعدة أو متقاربة أو متحاكة جنبا إلى جنب ، مما نتج عنه خلال الأحقاب الماضية ، إن مايعرف بالقطب كان صحراء ، وما كان جنوبًا صار شمالا ، وأن الوضع الحالى للقارات والمحيطات غير مستمر ! بل إن الصخور السطحية تغرق فى باطن الأرض على خط التقاء الألواح المتقاربة ، لتصهر مرة أخرى - مع شدة الضغط وارتفاع الحرارة - ثم تعود إلى سطح الأرض مع مقذوفات البراكين . .»[1] .

وما دمنا نتحدث عن العلاقة بين الدين والعلم فلنفرق بين نوعين من المعرفة الدينية ، هناك أحكام مقطوع بها فى الدين كالإيمان بالله الواحد ، والصلاة له ، وانتظار لقائه للحساب! فهذه أحكام يستحيل - كما قلنا آنفا - أن يوجد فى العلم ما يكذبها .

أما وجهات نظر الفقهاء فى قضية ما وتفاوت تفسيرهم لنص من النصوص ، فتلك أحكام ظنية يكتنفها الخطأ والصواب ، ولا يعتبر أحدها الرأى الرسمى للإسلام ، إنه رأى صاحبه ، وافق العلم المادى أم خالفه . . .

ومن هذا القبيل مرويات الأحاد التى لم تبلغ حد التواتر ، فهى ظنية الثبوت ، يعمل بها فى الفروع ولا تنبنى عليها عقائد . .

والأمر فى ميدان العلم كذلك ، فهناك مقررات علمية مستيقنة لم يوجد فى الإسلام قط ما يخالفها . . وهناك نظريات تشبه الاجتهاد الفقهى عندنا ، لا يمكن التعويل عليها أو التسليم المطلق بها ، وعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم بالأمس ، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم .

هذه النظريات العائمة لا نترك من أجلها رأيا لفقيه ، ولا حديث آحاد! ولمَ؟ وافتراض الصواب والخطأ واحد فى الطرفين ؟

إننا سنستبقى ما لدينا على حاله حتى يقطع الشك باليقين!

ويؤسفنا أن الكهان فى ميدان العلم أكثر من الكهان فى ميدان الدين ، وأنهم يحاولون بجراءة ترويج نظريات مهتزة ، وإكسابها أمام القاصرين طابع اليقين . . .

(١) الجيولوجيا والإنسان للأستاذ درويش مصطفى الفار مدير متحف قطر .

٣٨. هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟

يوجد فارق ضخم بين تاريخ الإسلام - فى نشأته الأولى - وتاريخ الدينين السابقين عليه ، أعنى اليهودية والنصرانية . . إن الإسلام تحول على عجل إلى دولة قائمة لها سلطات وطيدة ، أما النصرانية فلم تقم لها دولة إلا خلال القرن الرابع لوجودها ، وإذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسى على عهد مبكر . فإن كيانها قد تلاشى كل التلاشى بعد قليل ، وضاعت مقدساتها كلها .

إن هذا الفارق كبير بين الإسلام وغيره يفسر كيف بقى كتاب الإسلام مصونا! ، وكيف تعرضت كتب أخرى للعوادى اللاحقة .

ظل النبى ﷺ يتلقى القرآن الكريم فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة ، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة فى قلوبهم ويسجله الكتبة فى صحفهم ، وكان هذا القرآن معروفًا للعدو والصديق! أما المؤمنون فهم يستمدون منه النور الذى يمشون به ، وأما الكافرون فقد شد انتباههم كتاب يهاجم آلهتهم وينقض مواريثهم ويثير دهشتهم! حاولوا أولاً التهوين من شأنه وقالوا : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1] .

ثم تواصلوا بافتعال الضجيج لدى سماعه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2] ولعمرى إن هذه لهى الهزيمة النفسية الموجعة ، أن تخاف سماع كلام معين لأنه يغلبك!

ثم جاء التحدى البالغ لهم : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . .﴾[3] .

(١) الأنفال : ٣١ . (٢) فصلت : ٢٦ . (٣) الإسراء : ٨٨ .

إن التحدى يتوجه إلى قوم سمعوا القرآن وعرفوه عن خبرة ، وأدركوا أثر عجزهم عن مضاهاته!

المهم أن القرآن خلال فترة الضعف فى تاريخ الإسلام ، كان متميزًا معروفًا لا يلتبس بغيره ، ولا يلحقه نقص أو ازدياد .

وانتقل نبى القرآن إلى المدينة ، وهناك باشر سلطات رئيس الدولة من حكم بين الناس ، وعقد للمعاهدات ، وتوجيه للمصالح العامة ، وقيادة أو حث للجيوش هنا وهناك!

وظل القرآن ينزل عشر سنين أخرى ، الكتبة يسجلون بإشراف الرسول عليهم ، والحفظة يختزنون العلم فى صدورهم ، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته فى الصلوات الخمس ، فى قيام الليل ، فى مجالس التلاوة ، فى خطب الجمعة ، الأفراد والجماعات مقبلة على قراءة الكتاب العزيز . .!

وكانت مكانة المرء تعظم بمقدار إقباله على القرآن ، وكان النبى يرعى هذه المكانة حتى عند دفن الشهداء ، فهو يقدم فى اللحد أكثرهم أخذا للقرآن!

حكومة قائمة ترى القرآن دستورها ومنارها ، فهى تحفظه وتحافظ عليه ، وترسل الوفود به إلى الآفاق ، من أين يتطرق الريب إلى كتاب هذه بيئته الأولى؟

أمة تعبد ربها بفقه كتابه وتجويد حروفه ، ودولة بكل أجهزتها تصون وتحمى ، ما عرفت الدنيا من بدء الخليقة مثل هذا الصون لكتاب من الكتب .

ومضت دولة النبوة ، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة ، ورجالها هم السابقون الأولون فى اعتناق الإسلام وحفظ آياته وكتابة مصاحفه!

وظلت هذه الدولة ثلاثين عامًا شرّق فيها الإسلام وغرب ، وأثر عن جيوشها أنها كانت لا ينتهى لها هدير بالتلاوة آناء الليل وأطراف النهار!

ومضت دولة الخلافة ، وجاءت دول أخرى كثيرة فماذا حدث خلالها للقرآن؟

كان تواتره ، يمتد ليشمل أجيالا أخرى ، وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم والدور والقصور . . . وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] .

(١) الحجر : ٩ .

سأضرب مثلا لشرح ما أقصد ـ وإن كنت على وجل من ضربه واستحياء ـ لقد وضعت الولايات المتحدة لها دستورًا بعد حرب الاستقلال ، تضافر الأمريكيون حكومة وشعبا على دراسته وتنفيذه ، فهل يمكن القول بأن هذا الدستور حُرِّفَ وشُوِّهَ؟ وكذلك فعل الاتحاد السوفيتى! فهل يمكن القول بأن ما وضعه الثوار الحمر تغير وتبدل؟

إننى لا أشبه القرآن الكريم بهذه الوثائق ـ معاذ الله ـ فإن القرآن لم يجئ من مصدر واحد هو الكتابة ، بل المصدر الأول لتلقيه قبل أن يكتب هو الحفظ فى الصدور ، وقراءته عن ظهر قلب! وإنما لفت النظر إلى أن الدولة حين تقوم على دعامة ما فإنها سوف تحمى دعامتها ، وتفرضها على الزمن .

وتحول الإسلام فى عهد مؤسسه إلى دولة مكينة السلطان جعل الكتاب المعجز يحظى بالحياطة الشعبية والرسمية جميعًا ، وجعل كل حرف منه بين العيون!

أكذلك كانت الكتب السابقة؟ لا . . إننا نؤمن بالتوراة النازلة على موسى كما علمنا الله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[1] ونؤمن بالإنجيل النازل على عيسى كما علمنا الله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[2] .

فماذا حدث للوحى السابق؟ أغار أعداء بنى إسرائيل عليهم وهدموا الهيكل ومزقوا صحائف التوراة ولم يبقوا لهم أثرا يتمسكون به . . . فلما تحرروا من أسرهم ، بعد أمد طويل ، تقدم لكتابة التوراة من ذاكرته من تقدم فإذا الصحائف الجديدة ملأى بالغرائب!

من بضع سنين تقدم للقضاء الإسرائيلى جندى يشكو الضابط الذى يرأسه بأنه اغتصب زوجته ، وتحدث محامى الضابط فقال : إن موكله مشهور بالإقدام والشجاعة ، ومثله ينبغى التجاوز عنه كما تجاوز الله عن داود الذى اغتصب امرأة «أوريا» ولم يكتف بالزنى! بل أوصى بقتل الزوج المفجوع ، فقتل فى الميدان بحيلة مرسومة!!

(١) المائدة : ٤٤ . (٢) المائدة : ٤٦ .

إن هذا الدفاع كان مفاجأة للناس ، لكنه لم يكن مفاجأة للقضاة ، فهم يعرفون القصة فى كتابهم ، ولا أذكر بم حكموا فى هذه القضية! وإنما غاظنى أن نبيّاً كريمًا يتهم بالزنى والقتل ، ويراد جعل مسلكه أسوة!

وداود رجل برئ ، والصحائف التى لوثت سمعته وسمعة غيره من المرسلين هى التى يجب أن تحاكم!! فما أكثر ما بها من افتراء على الله والمرسلين!!

أما الإنجيل الذى نؤمن بنزوله على عيسى فإنه لا يوقف له على أثر والقصة كما يراها أتباعه أن عيسى ومن معه اعتبروا خارجين على القانون ، فقتل الحاكم الرومانى عيسى بطلب من الشعب اليهودى وانتهت المأساة!

وقد ألف تلامذة عيسى ـ هكذا قالوا ـ سيرًا تضمنت ما يعلمون من عظاته ، وما يقال عن مصرعه!

وسميت هذه السير أناجيل! وكانت أول الأمر تبلغ العشرات ، ولكن تم اختيار أربعة منها هى التى أقرت قصة الصلب واعترفت بألوهية المسيح .

وقامت للمسيحية القائلة بربوبية عيسى وصلبه دولة رومانية فى القرن الرابع لميلاده .

ونحن المسلمين نعتقد أن التثليث لم يجئ به دين ولا نزل به وحى ، وأن الأنبياء من عهد آدم إلى محمد ، وفيهم عيسى نفسه دعوا إلى إله واحد هو سيد العالمين وربهم الفرد ، وما عداه عبد مخلوق له .

والواقع أن القرآن الكريم هو السجل الجامع للعقيدة التى بلغها المرسلون ، وتواصوا كابرًا عن كابر أخذ الناس بها وتنشئتهم عليها .

وقد حصنه القدر من التحريف والتغيير ، فتعدت القداسة الموضوع إلى الشكل ، والمعنى إلى الحروف ، فأصبح ضبط الألفاظ نفسها دينا ، وقراءتها عبادة ، وذلك حتى لايعترى الكتاب الخاتم ما اعترى الكتب من قبل !

كان النبى ﷺ ـ وهو رئيس الدولة ـ يجعل خطب الجمعة تلاوة لسور القرآن ، فى أغلب الأحيان ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون ، ومن الطرائف أن عمر خطب بسورة النحل يوما ، فلما بلغ آية السجدة نزل من المنبر فسجد وسجد الناس معه ،

ثم خطب فى الجمعة التى بعدها بالسورة نفسها دون أن ينزل ويسجد فلما سئل فى ذلك قال : أمرنا أن نسجد إذا نشاء! يعنى أن سجدة التلاوة ليست فريضة . .!

وهاجم المشركون يومًا رسول الله وهو يدعو إلى الله الواحد ، وتدخل أبو بكر يذودهم عنه وهو يقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(١) وهذا بعض آية من سورة غافر!

وصلى عمر الفجر بالناس يقرأ سورة يوسف ، فلما بلغ قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٢) سمع نشيجه بالبكاء .

لقد كان القرآن ، ومازال ، شغل الأمة الشاغل ، واهتمامها الدائم ، وهى تسمع نبيها يقول : **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»** ، ويقول : **«لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق»** .

إن الناس يقرءون القرآن الآن ، كما نزل به أمين الوحى على خاتم الرسل ، لا تغيير فى حرف ولا فى شكل .

ومنذ أربعة عشر قرنا لم يتغير شىء من هذه الثلاثة ، الشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ، والقرآن هو القرآن!!

---

(١) غافر : ٢٨ .   (٢) يوسف : ٨٤ .

٣٩. ما الفارق بين القرآن، والحديث القدسى، والحديث النبوى؟

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى ، المسجل بين دفتى المصحف الشريف ، وهو المعجزة التى أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ ، وتحدى مكذبيه! وهو منقول بالتواتر ، ومتعبد بتلاوته ، ومعصوم إلى آخر الدهر من أى تحريف .

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الألباب والأفئدة ، وجاء على ألسنتهم : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ..﴾[1] ، لا ، هذا القرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات ، ويكلم به الأحياء!

وقد وقعت الخوارق التى يطلبون فما آمن منهم أحد لأن العناد أعماهم .

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الأعور قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث ، فدخلت على علىٍّ رضي الله عنه فأخبرته فقال : أو قد فعلوها؟ قلت : نعم . قال : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : أما إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟، قال: كتاب الله تعالى.

فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين. وهو الذِّكرُ الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

(1) الرعد : ٣١ . (2) الجن : ١ ، ٢ .

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة أو بتعبير آخر : لن يكون فقيها فى السنة قصير الباع فى فقه القرآن الكريم ، والكتاب والسنة معا دعامتا الدين .

أما الحديث القدسى فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية ، فليس معجزًا فى عبارته ولا وقع به التحدى ، ثم إنه لا يتعبد بتلاوته ، فلا تصح به صلاة . . وأخيرًا لم يصل إلينا بطريق التواتر القطعى ، فالأحاديث القدسية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف ، بل قد يكون فيها الموضوع كحديث (عبدى أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون) ، فإنه لا أصل له . . !

ويرى البعض أن الحديث القدسى من كلام رسول الله ﷺ ، عبر فيه الرسول عن مراد الله تعالى ، وكأن لسان الحال يقول كذا ، والجمهور على الرأى الأول ، وأنه يشبه الوحى النازل فى صحف إبراهيم وموسى ، أى كلام إلهى غير معجز ولم نكلف بتلاوة ألفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم . . !

من نماذج الحديث القدسى الصحيح ما رواه مسلم عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :

«يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم.

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم!

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم.

يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم.

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضُرّى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى!

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علَى أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً..

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك من ملكى شيئاً. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد

وسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر!

ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»..

ومن نماذج الحديث القدسى الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى :

«يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى!!

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى!!

يا بن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة!!»

فى هذا الحديث جرعة منعشة للإرادة التى غلبها اليأس من طول ما انهزمت فى الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط ، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها إلى الله ، وتلزم الصراط المستقيم ، فالحديث هنا يشبه قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...** ﴾[(١)] .

وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشىء آخر ، نلفت البصائر إليه أن آفة الكثيرين من العصاة هى عبادة النفس! أعنى أنهم يعبدون أنفسهم من دون الله ، أو يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برئ من هذه الأثرة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضما نفسه ، بادى الفاقة إليه وحده ، فهو أهل لأن يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السر فى رفض الله سبحانه لأى شىء يعتبر شريكاً له ، إن أى شىء يعكر حقيقة التوحيد ، مهما كان أمره ، بشرًا أو حجرًا أو مالا أو جاها هو صدع هائل فى الإيمان!!

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ .

أما الحديث النبوى فهو ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حُكم أو تقرير ، فإن الرسول الكريم إمام الأمة ، وأسوتها الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ، كما بين الله ذلك فى كتابه ﴿ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[(١)] ﴿ **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[(٢)] .

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ﷺ ، ويحسب أن القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه ، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عباده ، وهذا خطأ بالغ ، فإن القرآن ليس نقطة عثرنا عليها فى فلاة ، ولا كتابًا نظريًا يستطيع كل امرئ أن يفسره على هواه ضاربًا عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه!! .

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الإنسانية الطويل .

إن محمدًا ـ لو لم يكن رسولاً ـ لكان لنفاسة معدنه ، وطهر سريرته ، ومجادة نفسه ، أهلا لأن يسمع نصحه! فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها ـ قد اتصل بالملأ الأعلى ، وأضحى معصومًا فى كل ما يصدر عنه ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾[(٣)] .

إنه عندما يتكلم يُبلّغ عن الله! ويصدر عن فؤاد موصول بنور السموات والأرض ، وكما قال الله له : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[(٤)] .

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «**ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم:**

رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل، يقول الله له يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك..:

(١) النور : ٥٦ . (٢) النساء : ٨٠ .
(٣) النجم : ٣ . (٤) الشورى : ٥٢ .

ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله تعالى: لقد أخذها بكذا وكذا فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك..!

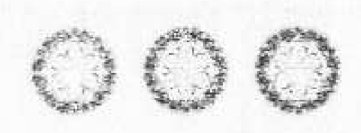
ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها ما يريد وفى له! وإن لم يعطه لم يف له..!!

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه ، وأن من قرر عصيان رسول الله ، ورفض ما أمر به أو نهى عنه ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . .

والواقع أن من يترك حديثًا ما من المرويات التى بلغتنا ، لا يفعل ذلك تمردًا على صاحب الرسالة ، وإنما شكاً منه فى صدق ما نسب إليه ، أو فى المعنى المراد منه . . !

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله ، كلاما جمع بطريق الجزاف أو سجل دون وعى!! لا ، إن جميع الضوابط التى يمكن حشدها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين .

ثم إن السنة العملية ، وصلت إلينا بطريق التواتر ، الذى وصل به القرآن نفسه ، فلا مجال لإنكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة ، أو الزكوات المحسوبة .



٤٠. ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبدًا! وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع ، وذلك مثل حديث «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» ، وقوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(1) .

الفهم الصحيح للموضوع كله ، أنه لابد من عمل ينال به المرء رضا ربه ، ويستحق رحمته ، فالجنة ليست للكسالى والأراذل ، بيد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله ، وإنكار الذات ، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرب به لأن عيوبه لا تخفى عليه ، أو لأنه دون حقه ، أو لأى سبب آخر .

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف ، ليس فى حسابه إلا أنه قدم العمل المطلوب للجنة ، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله!! هذا المغرور لا يقبل منه شىء ، ولا مكان له فى الجنة .

أما من جاء خاشعًا خفيض الجناح ، شاعرًا بالانكسار لأنه لم يقدم ما الله أهل له! فإنه يدخل الجنة بعمله!

والدلائل على هذا المعنى كثيرة ، وما يعقلها إلا العالمون !

إن السنة بحر متلاطم الأمواج ، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك ملابسات كل قول ، والمراد الحق منه ! فإن النبى عليه الصلاة والسلام ظل يكلم الناس ثلاثًا وعشرين سنة ، اختلفت فيها الأحوال ، وتباين الأفراد وتشعبت القضايا .

ووضع كل حديث بإزاء المقصود منه ، أو معرفة النطاق الذى يصح فيه ، هو عمل الفقهاء ، وهو عمل لا مناص منه وإلا حرفنا الكلم عن مواضعه!

والمحزن أن ناسا لافقه لهم تكلفوا مالا يحسنون من قراءة للسنة ، وإفتاء بها ، فأساءوا ولم يحسنوا ، وهم الآن حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية!

- بعضهم فهم أن الإسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة إلى دين!

---

(1) النحل : ٣٢ .

وبعضهم فهم أن مستقبل الأمة إلى ضياع لأنه لا يجيء يوم إلا والذى يليه شر منه!

وبعضهم فهم أن الغنى مضاد للتقوى، وأن الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة!

وبعضهم فهم أن القدر تحويل قسرى للمرء من طريق النجاة إلى طريق الهلاك أو العكس، لأن العلم الإلهى سبق بذلك!!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة، دون أن يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية! ودون أن يكون لديهم ذوق أدبى بأساليب الأدب العربى، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية، وأحوال المجتمعات البشرية، ودون دراسة عميقة للسيرة الشريفة، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشئون وشجون! ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى.

فالسنة عندهم الأكل على الأرض، لا على مائدة، وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالأحجار لا بالأوراق، وإرخاء ذيل العمامة على الأقفية، وإيثار الأبيض من الملابس الفضفاضة، وضرب النقاب على الوجه حتما، وذاك بالنسبة إلى النساء!

والواقع أن العادات البدوية غدت سنة نبوية، ولما كان العرب يؤخرون المرأة فى المكانة فقد مُنعت باسم الإسلام من التردد على المساجد، ومن تلقى العلم فى المدارس، ومن جهاد الكلمة، أى جهاد الأمر والنهى! ومن أى مشاركة فى جهاد عسكرى... إلخ.

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد، ومنافاتها للكتاب والسنة، ومع ذلك فإن الدهماء المتحدثين فى الإسلام يقاومون الحق بعصبية، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة.

والذى أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء، ومن يعنيهم الأمر من الولاة والقضاة والدعاة، والمتخصصين فى أى مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل.

أما رجل الشارع أو الشخص العادى، فإن أربعين حديثًا تكفيه وتغنيه.

وعلى أية حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يحدث الناس أو يتصدر للفتوى فى شئونهم!

لقد رأيت أغيلمة تشتغل بالسنة، انتهى أمرها بالهجرة إلى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة إسلامية!! نهضة بعيدة عن فقه الحياة والاستمكان من الدنيا! لعل صالحى الجن سوف يمدونهم بالمتفجرات فى ميادين الحرب، أو بالغذاء والكساء والدواء فى ميادين السلام... والجنون فنون!!

نحن نستمد معاقد الإيمان وأركان الإسلام وأعمدة الأخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا، والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه، وعلى ضوء هذا نصلى الخمس، ونحج البيت، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية، وهناك أحكام كثيرة فى الفروع أجمع عليها الفقهاء، ولا يخرج على هذا الإجماع مؤمن، أما ما كان موضع خلاف، فالأمر فيه على الاتساع، يعتنق أى مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج.

قال الفقهاء: والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن، فالأولاد مثلا يرثون آباءهم بنص الآية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ..﴾[1] وقد جاءت السنة بأن القاتل لا يرث أباه الذى قتله. كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث أباه المؤمن..

وقد تقيد السنة نصًا جاء فى القرآن الكريم مطلقا، فالآية تجعل الأم من الرضاع محرمة كالأم نفسها، وكذلك الأخوات قال تعالى: ﴿...وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾[2] وجاء فى السنة أن ذلك ليس على إطلاقه، فلا تحرم رضعة ولا رضعتان، ويرى عدد من الأئمة أن أقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم!!

وبقى أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق!

والذى أميل إليه أن الأمومة لا تتكون من رضاع كثير، فإذا ورد فى السنة أن الحد الأدنى لذلك خمس رضعات، أو عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية!

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[3]، ولكن السنة بينت أنه لا يقتص للفرع من الأصل، فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل!، والسبب أن هذا القتل شذوذ عن سنن الآباء الذين قد يفتدون أبناءهم بحياتهم، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة!

لابد أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجرام، وأنه وقع تحت ضغط جنونى طارئ!

ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أن الأب رجل متوحش مجرد من مشاعر الحنو، فكر ودبر لغرض خسيس! ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقا إمضاء للسنة!

وهذا التخصيص أو التقييد هو تفسير ممن تلقى الوحى للمراد الإلهى، ومن أحق من نبى القرآن بتفسيره! ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم، بل هو بيان وتوضيح.

(١) النساء: ١١. (٢) النساء: ٢٣. (٣) البقرة: ١٧٩.

وتستقل السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع فى القرآن ، وأى ضير فى هذا! قالوا : مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل! ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال . . . إلخ .

والتحقيق أن تشريعات السنة كلها داخلة فى نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة ، وعندى أن المسح على الخفين ليس من إنشاء السنة بل هو معنى القراءة الثابتة : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾[1] بكسر اللام عطفا على ما قبلها ، والتعبير مجازى كما يقول علماء البلاغة ، أطلق الحال وأراد المحل!!

أما تحريم الذهب والفضة فسدًا لأبواب الترف! وأظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الأذان ، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار أو فى الساعات المنبهة ، أو فى الهاتف أو فى أعناق الدواب مثلا .

ولفقهاء الحنفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لأنى ميال إليه ، إنهم يرون أن الفرض والمحرم لابد فى إثباتهما من نص قاطع ، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على إثبات حرمة أو إثبات فرضية .

ويعنى هذا أن الأحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الأئمة الآخرون!

الأئمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمندوب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك .

ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلام على تركه ، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله ، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية ، وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلاً .

لا فريضة عندهم إلا بنص قطعى ، ولا تحريم إلا بنص قطعى ، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمى ، وشذ بعض الحنابلة فروى عن إمامه أنها تفيد القطع ، وهذا فهم مردود!

(١) المائدة : ٦ .

٤١. هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟!

ظاهر أن الذى أوحى بهذا السؤال ما كتبه «داروين» عن أصل الأنواع ، وما أعلنه من رأى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع أن النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع أن هناك من علماء الأحياء من رفضها جملة وتفصيلا ، فإن أعدادًا من الناس لاتزال تروج لها ، بل إن هذه النظرية لا تزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك أن سدنة المذاهب وسماسرة الإلحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون إقناعنا بأننا من الأرض وحدها تخلقنا ، وأن الروح الذى نسمو به ونسود بقية الأحياء لم يجئ من الله! فهم لا يعترفون به!! إنه ظاهرة أرضية بحتة!

وأنا رجل مسلم ، أشعر بأن نسبى السماوى أزكى من نسبى الأرضى وأحق بالتقديم ، وأننى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الأرض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الإيجاد ما كان له شأن يذكر !

إن آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد أن نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية أضحى كائنا جديرًا بأن تسجد له الملائكة وتحيى فى وضعه الجديد الإبداع الإلهى وحسن التقويم وعبقرية العقل وسناء المواهب!! ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1]!

(١) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

لولا هذه النفخة لكنت نوعًا من الأنواع التى تحدث «داروين» عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الأفراد من زواحف وسباع ومن طيور وأنعام!!

إننى أومن بأن الله خلقنى ونفخ فىَّ من روحه ، وإذا كان أبى آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المدى ، وقد قال الله فىَّ وفى أخوتى من أبناء آدم ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾(١) .

والنفخة التى سرت فى أوصالى وجعلتنى خلقا آخر تستحق التأمل العميق ، إننى الآن واحد من خمسة آلاف مليون بشر ، هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد! كلا ، إنه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية ، ومشاعرنا النفسية .

لكل قلب همومه وأشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أى إن النفخة ها هنا!

فإذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة؟ وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الأرض ما شاء الله؟

إن الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الإنسانية المذهلة شىء صغير بالنسبة إلى ما خلق من عوالم لا ندريها! أليس القائل : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

إن الشبه واحد بين أسماع الناس وأبصارهم أى بين مظاهر الحياة الإنسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول :

يانفس مثل الشمس أنت أشعة
فى عامر ، وأشعة فى بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت
شتى الأشعة والتقت فى المرجع

(١) السجدة : ٧ - ٩ .
(٢) غافر : ٥٧ .

إن الغروب الذى يطوى الأشعة فى رأى العين فيبدأ الليل ، كالموت الذى يسترد السر الإلهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع فى أخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تختفى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر !

وكان النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح «**أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور**» ، وعندما يقول فى كل مساء «**أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير**» .

ومع البعث تبدأ الخصائص الإلهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، وكل امرئ حسابه على قدر ما أعطى من مواهب وإمكانات ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾(١) ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾(٢) .

وعلى أية حال فإنى قد أدرى أن جسمى يتكون من تراب هذه الأرض ، لكنى لن أصدق أبدًا أن الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ ، وجاءتنى من تراب هذه الأرض!

ثم شىء آخر يجعلنى أحس بأبى آدم ، وبأنه حقيقة لا يليها تطاول العصور ، ذاك هو وحدة الشعور والفكر بينى وبينه ، إن الله أسكنه دارا حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها ما يغنى ويكفى وقال له : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾(٣) بيد أن الإنسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافها ، يريد الحصول على الممنوع وإن كان مؤذيا! فى الحلال الطيب سعة ، أو فى دائرة المباح مقنع! لكن آدم أبى إلا الجرى وراء الوهم .

وكانت له آمال باطلة يود لو تحققت ، إنه يحب الخلود ، ويحب أن يكون ملاكا!! يا أبانا ماتبغى! إن الله أسجد لك ملائكته فكيف تنزل دون مكانتك؟

وجعل إلى مشيئتك البقاء فى الجنة والتقلب فى رياضها فماذا تخاف؟

وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس أبينا الطامع! فحلف له بالله أن أمانيه سوف تتحقق إن هو أكل من الشجرة المحرمة . . وكان صوت النهى قد بدأ يخفت ،

(١) الطلاق : ٧ . (٢) النجم : ٣٢ . (٣) البقرة : ٣٥ .

ومضى زمن على الحظر المفروض ، كانت الأماني الباطلة خلاله لا تزال على شدتها ، ولم ييئس الشيطان من مهمته فظل يوسوس ، ويغرر بالأب الذاهل ، حتى دحرجه من مكانته ، وأخرجه من جنته ، تذكرت قول المتنبي :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهي بي في مراد أحده
بغير أن يكسى شفوفاً تربه
فيختار أن يكسى دروعاً تهده

لقد مضى المتنبي مع طمعه في الإمارة والجاه ، وأثار الغبار وراء ركضه! مدح وهجا ، وخاصم وسالم . واشتبك مع الأقيال والأنذال ، وفي ليلة ليلاء لقي مصرعه على أيدي جماعة من الموتورين ، فمرغت الحكمة والشعر في الثرى! وأجهز الموت على تطلعات الرجل الذي لم يرضه شيء !

إننا أبناء أبينا غفر الله له ، ما أشبهنا به وما أشبهه بنا !

لكن أغلى وأعلى ، ما في قصته لم يذكر بعد! لقد تذكر الناسي ، أو صحا الذاهل ، وعرف آدم أنه ضل الطريق ، وأضاع قواه وراء وهم ، وأغضب وليّ نعمته! فوقف مع امرأته يجأران بهذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(1) .

وهبطا إلى الأرض ، وأرسل الله سبحانه من يتلو علينا خبرهما لنتعظ! إن قصة الإنسانية في حياة آدم هي قصة الإنسانية في حياة نبيه ، خطيئة ومتاب . . . فما هي قصة الإنسانية عند الملاحدة! جراثيم وجدت من غير موجد ، ظلت تتعارك ليبقى الأقوى ، وظل الأقوياء يتعاركون حتى استطاع الإنسان الغلب على غيره من الدواب وأن يسودها ، فبلغ الإنسان بجدارة قمة المملكة الحيوانية! وأمسى سيدا للفيلة والحمير والأرانب والسباع . .!! لقد ساد إخوانه في سياق شريف!

إن القصة بهذا السياق أكذوبة حقيرة . .

(1) الأعراف : 23 .

ومع أن «داروين» قال : إنه لا ينكر الألوهية! فإن كلامه مضطرب متهافت ، وهو منته آخر الأمر إلى قطع الصلة بين الإنسان ، ورب الأرض والسماء .

أما حديث أن الله خلق آدم على صورته فقد قبله أغلب المحدثين وفسروا الصورة بالصفة! يعنون أن الله لما نفخ من روحه في الكيان المادي لآدم أصبح آدم بهذه النفخة حيا ، قادرًا ، مريدًا ، سميعًا ، بصيرًا ، متكلما . . . الخ .

وظاهر من تكوين آدم أن العقل الذي أضاء في دماغه علمه الكثير مما يعمر الكون ، وبصَّرَهُ بما تعجز الملائكة عن إدراكه ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾(1) .

وقد انطلق بنو آدم في الأرض بمواهبهم العليا وغرائزهم الدنيا ، وتعرضوا لامتحانات هائلة ، ولا يزالون في ضوضاء المعركة وبأسائها ، إلى يوم الفصل!!

ومن العلماء من يقول : خلق آدم على صورته ، أي صورة آدم نفسها فلم يعرض لها تغيير عن الأصل ، ولن يعرض في المستقبل ، أي لا تطور !

ورأيت لبعض الكتاب طعنا في الحديث! يقول : إنّ أبا هريرة نقل هذه الجملة عن كعب الأحبار ، وهو يهودي الأصل ، والجملة موجودة في سفر التكوين أول أسفار التوراة ، فانخدع بها أبو هريرة ورواها حديثًا !

والذي أراه أن وجود الجملة في التوراة لا يعني أنها موضع ريبة ، وأن المعنى الصحيح لها قائم ومقبول ، وليس للاتهام دليل .

(1) البقرة : 31 ، 32 .

٤٢. هل يؤخذ القرآن بنصه ؟
أم على أساس الظروف التى نزلت فيها آياته ؟

يندر أن يكون المرء شريرًا من جميع نواحيه ، أندر من ذلك أن يكون ـ مع غلبة الشر عليه ـ شريرًا فى جميع الأوقات .

السمة الغالبة أن يخلط الإنسان عملاً صالحا وآخر سيئًا ، وأن تمر به فترات صحو تبدد غيومه بين الحين والحين .

والخوف من الإنسان الذى يصحو ويغيم ، ويكبو ويقوم ، أن يفلسف انحرافه الذى يعروه ليجعله مسلكا عاديًا أو أمرًا لا يجوز التنديد به والتوبيخ عليه ، وإن جاز لضرورة فلتكن الكلمات خفيفة الوقع ، وتوطئة للعتبى!

استمعت إلى اللص البدوى الذى يسوغ سرقته قائلاً :

ولا أسأل الجبس اللئيم بعيره   وبعران ربى فى البلاد كثير!

وقلت : هذا رجل يكره أن يقبل البعير صدقة ، ويكره أن يأخذه عارية ، لأنه يكره أعطية اللئام ، لماذا تكون يده السفلى! فليذهب إلى الصحراء أو إلى البيوت وليسرق أى بعيرا ولا جميل لأحد !!

إن السرقة فى منطقه استجابة لرغبة نفسية طبيعية !

قلت : لو حمل هذا الرجل إجازة علمية فى القانون ، فلن يعاقب سارقًا ، ولو حدث عن حد السرقة لأرعد وأزبد وهاج وماج وقال . . لا عودة إلى الوراء ، لا نريد وحشية !

ولو أن إنسانا عاش فى بيئة اعتادت السطو على الأعراض ، أو تسلل إليها الشذوذ ، فأصاب وأصيب منه ، واعتدى واعتُدى عليه ، فإنه سينظر إلى الحياة من خلال جوانبها الأخرى التى لم يتدنس فيها ، ويحاول تضخيمها والتعويل عليها وحدها ، والنظر إلى المباذل التى تلوثه على أنها هَنَّات ينبغى التجاوز عنها وعدم الوقوف عندها .

وهذا ومثله لو ملكوا سلطة التشريع لجعلوا العلاقات الجنسية كلأً مباحًا ، فى حدود التراضى طبعًا ، كما هو الشأن فى القوانين الأوربية!

إننى أفهم أن يقع الخطأ ، لكنى لا أفهم أن يتحول إلى قانون !

وقد يستكبر إنسان! لكن ما معنى أن يعتذر عن إبليس؟ ويفلسف تطاوله على الله تبارك وتعالى!

وقد ينزلق امرؤ فى الوحل! المفروض أن ينهض ويصلح شأنه ويغسل درنه! أما أن يتغزل فى الطين ، ويرمى به وجوه السائرين ، فهذه دناءة غليظة!

يؤسفنى أن ناسا كثيرين بدل أن يصلحوا أنفسهم يريدون إفساد القانون ، وذلك هو السر وراء المحاولات المجنونة لتعطيل الشرائع السماوية ، وهى محاولات نجحت بين أهل الكتاب الذين سبقونا ، فأمسى الوحى حبرا على ورق .

ويراد فى كبوة الإسلام المعاصر أن يفعل المسلمون مثلما يفعل غيرهم ، فتوضع شرائع الإسلام على الرف ، أو يحكم على بعضها بالإعدام تمهيدًا لإنفاذ الحكم فيها كلها .

والأمر لا يحتاج إلى الحيلة ، فلنقل : إننا نتجاوز النص إلى روح النص ، أو لنقل إن الظروف التى نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير ، فليتغير النص تبعًا لذلك !!

ما أسهل تطويق الإسلام بهذه الطريقة! وجعله اسما لا حقيقة له ، أو جعله شكلا لا موضوع له !

وقد بدأ سماسرة الاستعمار تنفيذ الخطة ، فسمعنا من يقول : إن الضرائب تغنى عن الزكاة! ومن يقول : إن الصلاة والصيام يعطلان الإنتاج ، فلا حرج من التنازل عنهما! ومن يقول : إنما حرم لحم الخنزير لقذارة مراعيه قديمًا وقد زالت الآن هذه العلة! ومن يقول : إن العربدة فى الطريق هى سر تحريم الخمر ، فمن يتناول منها قليلا فى بيته فلا حرج . . . إلخ .

وهكذا ، تنهد أركان الدين وتضيع معالم الحلال والحرام باسم «روح النص» «وتغير الظروف» ، ويمنع انتفاع الناس بالإسلام ، بل يمنع دخولها فيه! وينفسح المجال بعد ذلك للإلحاد ، أو للأديان الخرافية !!ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص ، كان تمهيدًا للقضاء على العبادات والعقائد والتاريخ والتراث واللغة ، وسائر مقومات الأمة . . !

ونحن إذ نوصد الباب فى وجه الاستعمار الثقافى نفتح الباب على مصراعيه أمام أولى الألباب ، ليحسنوا فقه الإسلام وعرضه ، ونذكر بدءاً أننا لسنا من المتعصبين للفقه الظاهرى ، بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من

أدلة الشريعة ، ومع أغلب الفقهاء فى رعاية المصلحة المرسلة ، واحترام جملة القواعد التى تحكم الفكر التشريعى عندنا .

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الإسلامية .

لكن علم الأصول مجمد فى كتبه ، والمسيرة فى القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه! والعالم الإسلامى تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التى لقيت حظوة عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليد هى الإسلام بعينه ، واعتبر تركها خروجا على الدين ، وربما وصف تاركوها بالارتداد!!

إذا كان ذلك ما دعا إلى الكلام عن النص وروح النص ، والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وإن لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير شكاتهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حبست فيها ألوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم! من الكفء المرتقب؟ أستاذ فى العلوم؟ محام قدير ؟ أديب رائع ؟ تاجر ناجح ؟ شاب تزينه التقوى وخدمة المثل ؟ لا ، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها ! المهم النسب الفارغ ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير ! .

وقضية الكفاءة يسندها فقه معين! ، لكن هناك فقها إسلاميا آخر يقول إن الزنجى المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمى ، لا ، هذا فقه مهمل! لماذا لا يكون الإهمال نصيب الاجتهاد الأول؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة - يزدرى بسبب هذا الذى حدث ؟

إنه لا شكاة من نص معين ، لا شكاة من أمر أو نهى عن محرم ، الشكاة من فهم ضيق لأحد النصوص أو من واجب لم يرد به أمر ، أو من تحريم لا يسنده نهى!!

وعلاج هذا الخلل ميسور ، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين .

قال لى أحد الناس : إن إعطاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين فى الغرب! وهم يرون المساواة بين الجنسين ، وإهمال هذا النص!

قلت : إن هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعل نفقة الفتاة مسئولية الأسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغرب بين الذكر والأنثى فى طلب الرزق ، وخرجت الفتاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث؟

إن الغربيين يجب أن يخجلوا من الأدران الجنسية التى تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء فى الغنم والغرم .

وأنا لا أزال حائرًا فى تعليل هذا الرضا العام ، بانتهاك الأعراض ، وإشباع الرغبات ، وتقديم الأجساد فى المراقص والحدائق!

وعلى أية حال ، الرجل ملزم بالإنفاق على زوجته إن كان زوجًا ، وعلى ابنته إن كان أبا ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كى تعيش ، فإنها ستفقد نفسها فى مآزق كثيرة !

ولها يقينا أن تعمل وتكسب فى أوضاع متخيرة مضبوطة ، لها وليس عليها! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة فى ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه! ولولا أتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدى لقيادة الإنسانية ، لما بقى الغرب فى مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه!! إنه باق لعدم وجود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم الله آياته ، ويسَّرَ فهمها وذكراها ، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية ، والمسالك الفردية والاجتماعية . .!

وليست هناك آية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ ، أو تعطيل عملها ، تصريحًا أو تلميحًا .

وإذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحدود والقصاص ، فهناك عيب أشد على نفر من المنتمين إلى الدين ، أنهم أطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

إنهم صلوا لأن الصلاة عمل لا يجر وراءه المتاعب . . أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا . . ﴾[1] فأمر فوق طاقة الجبناء الحريصين على منافعهم ومناصبهم ، هنا يمكن اللجوء إلى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجز عقلاً ، والجبن حكمة . . .!

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار .

(١) المائدة : ٨ .

٤٣. ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟

إذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن أحد! فإن توارث الذهول عنها أمات الشعور بها ، حتى قال الحسن البصري عن الموت ـ وهو أول مراحلها ـ **ما رأيت حقا أشبه بباطل من الموت..!**

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصًا عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطئ عميقا ، ثم تترك غرا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فإنك قاتله !!

قد نستغني عن بعض الحقائق وإن كان الجهل بها عيبا ، مادامت لا تمسنا ، أما إذا ارتبط كياننا المادى والأدبى بشيء ثم غفلنا عنه فهنا الطامة . .!!

إننى أتخيل فجيعة الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس أمام غيب تحول إلى شهادة! أمام أمر كان يهزأ منه فإذا هو جدار يصدع دماغه! لقد وقف وجها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(١) .

ليت ! وهل ينفع شيء ليت ؟ إنه أضاع ماضيه فى الحياة الأولى سدى ، وها هو ذا يحصد مازرع ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التأوه والندامة يقول : ياليتنى قدمت لحياتى ، وهيهات .

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقا إلى المسجد ، يغمض عينيه عن المفاتن المبذولة ، يستعف عن المحرمات وإن كثرت حولها المغريات .

(١) الفجر : ٢٢ ـ ٢٤ .

إنه ـ يوم الحساب ـ يتلقى نبأ نجاحه فيصيح جذلان . مسمعا كل إنسان ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(١) .

إنها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود! شتان بين مصير ومصير !

وأثر الإيمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، إنه يتحمل حينا ليظفر بالراحة بعد حين! كما قيل لأعرابى : تصوم فى هذا اليوم الحار؟ قال : **أصومه ليوم أحر منه !**

وتعليل النفس بالآمال عون على الرضا بالمتاعب ، وحبسها على ما تكره لتنال ما تحب! وكما قال الشاعر :

منى إن تكن حقا تكن أسعد المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا!!

وهذا الاستثناء بالنسبة إلى الآخرة مرفوض ، فإن الدار الآخرة أحق وأثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٢) . والحيوان كالفيضان مصدر على سعة المعنى .

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تزكيته وترقيته ، فعندما ضاقت زوجات النبى ﷺ بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما ألفتن قديمًا ، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع إلى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

إنه بيت الكفاح والخشونة ! بيت التلاوة والتهجد ! لابد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الإسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا إلى الآخرة وسعى لها سعيها

(١) الحاقة : ١٩ ـ ٢٤ . (٢) العنكبوت : ٦٤ .

فليبق موطنا نفسه على حياة ناشفة! ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

وجمهور الناس قد يحس غصه وهو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحدين المجرمين يمرحون فى طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وأمارة القوة .

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يمحو ذلك محوا عندما يقول : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾(٢) .

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر فى القرآن كثيرًا ليحارب ظاهرة مؤذية تسود الأمة العربية والإسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهافت حولهم الأتباع ليؤازروهم على ظلمهم ، ويشاركوهم فى منافعهم الحرام .

إن التبعة فى الفساد والإفساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة ، لأن هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون ، الرءوس والأذناب شركاء فى اقتراف الجرائم ، وفتنة المستضعفين وإثارة الفتن ، ومن هنا جمعهم مصير واحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوار! ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾(٣) إن الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم فى دار الجحيم تسوؤهم اللقيا ، ويصيحون مستنكرين مرآهم! لطالما هشوا لهم فى الدنيا وسارعوا إلى لقائهم ، أما اليوم فإن الفريقين يتبادلان السخط ، والتشاؤم وعدم الترحيب . .!!

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ . (٢) آل عمران : ١٩٦ - ١٩٨ . (٣) ص : ٥٥ - ٦١ .

ويتذكر الفريقان أنهم كانوا يتفقون على إهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ويتظاهرون على اضطهادهم وأذاهم! ، أين هم الآن؟ .

وقالوا : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾(١) .

تسجيل هذا المنظر الذى سيقع حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذى أرهقه الاستضعاف والاستهزاء! أما الكافرون فإنهم لا يعونه ولا يصدقونه !

ومنظر آخر جدير بالتأمل ، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديمًا من أهل الضلال والكفران ! ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾(٢)؟

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو يقول لصاحبه : أتصدق أننا بعد فنائنا نبعث ونجزى؟

ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط أهوال ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾(٣) !

وعبارة إن كدت لتردين ، تشعر المؤمنين فى يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق ، لأن التهوين فيه طريق السقوط والضياع ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم ، إذ شرح صدورهم لهذا واستدامهم عليه !

وفى دنيانا الحاضرة ، ينفر المنافقون من أهل الإخلاص واليقين ، ويهجرون مجالسهم ، ويبعدون عنهم إذا جمعتهم المصادفات فى طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه ، ما يأنسون إلا بهم . . . بيد أن الحال تتغير تغيرًا عميقًا فى الدار الآخرة ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ

(١) ص : ٦٢ - ٦٤ . (٢) الصافات : ٥١ - ٥٣ . (٣) الصافات : ٥٤ - ٥٧ .

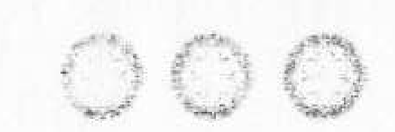
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[1] !

إن القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره ، ويعالج عللهم بما يسوق من صوره !

إنه يذكره لإصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع .

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها ، فما يعرفون إلا هذا الشراب ، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء ، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان .

مررت يوما بأحد شوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ، وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته ، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت فى نفسى : انتهى أمرها ، إن كثيرًا من القادة والساسة لا يرقون بحياتهم فوق هذا المستوى الحيوانى ، يظنون أمرهم انتهى عندما ينفقون كهذه الدابة ، ألا ما أحقر الكفر ، وأسوأ تصوره للوجود !



(1) الحديد : ١٣ .

٤٤. ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار الكون! إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة ، وقد طوعت ما بلغته إلى تقدم صناعى باهر طفر بالإنسانية طفرة رحيبة ورهيبة ، فى جميع المجالات المدنية والعسكرية . . .

ولكن هناك إحساسًا عامًا بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى ، وأن إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيرًا عن إنسان العصر الأول فى غرائزه وشهواته!

وإذا كانت ثمة فروق ففى الوسائل لا فى البواعث والغايات ، بل لقد قيل فى إنسان العصر الحاضر : إن عضلاته أكبر من عقله .

والواقع أن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما رددنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة!

إن الكمال الحقيقى امتداد ونضج فى جميع الملكات الإنسانية ، وهذا التوازن أساس لابد منه لقيام مجتمع رشيد . وحضارة يانعة الثمار ، مديدة الظلال ، فهل الحضارة الحديثة ـ بعد تلك المقررات ـ جديرة بالخلود؟ أو هى أرجح من غيرها فى موازنة منصفة؟ الحق ، لا . .!

فالرجل الأبيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، إنسان طافح الأنانية ، يشده إلى منافعه ألف رباط ، وقبل أن نشرح شرهه المسعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر أحد مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الإسلام للأعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة إلى النور ، وبعد ردح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء . .

فالبخارى هو المحدث الأول ، وأبو حنيفة الفقيه الأول ، والحسن البصرى المربى الأول ، وسيبويه اللغوى الأول . . . إلخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم «قطز» فى معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج فى أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين فى حطين .

إن الإسلام محا النعرات الجنسية فى أغلب الميادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الأبيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ولا تحكمهم إلا شرعة الغاب!

اكتشف الإنجليز أستراليا فماذا فعلوا بسكانها؟ شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ، وأخبرنى صديق قادم من أستراليا أن البيض يبسرون أردأ الخمور لهؤلاء السكان الأصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الأخير ، وتبقى أستراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وإيثار . . .!

أكان سكان أمريكا الأصليون أسعد حظًا من أستراليا ؟ لقد تتبعتهم حرب الإبادة من بلد إلى بلد ، وكان المكتشف الذى يسيل ريقه للذهب ينظر ، فإذا وجد هنديا أحمر على رأسه تاج من ذهب ، قطع الرأس ، وعاد بالتاج . .!

قد يقال : كان ذلك فى الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد ، وقد ارتقت اليوم البشرية ، وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الأولون ، واستنكرته!

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الأبيض ، وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألقى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكى فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب ، ولا ريب أن عشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذى كان يمكن أن يجند فى الحرب . .!!

المأساة أن هؤلاء «المتحضرين» ارتقوا علميا وهبطوا خلقيا ، وأنهم عبيد لذاتهم العاجلة ، وأن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم ، أنهم لم يسمعوا يومًا من يقول لهم : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ . . . ﴾[1] .

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء ، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطينى ويمحى وجوده فوق أرضه ، ويجاء بألوف مؤلفة من اليهود لتحيا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى مكمم الفم ، لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل . .!

إن الغرائز المهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت إلى جموع المستشرقين - وهم قوم ذو ثقافة واسعة - لفتهم ضغائن غبية ضد «محمد» ﷺ ، فأذاعوا عنه أنه كبنى جنسه محب للنساء . . .

إن هؤلاء المستشرقين قرءوا فى العهد القديم أن سليمان جمع فى عصمته ألفا من النساء ، سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟ لا ! نصف العشر؟ لا ! ربع العشر؟ لا !

ومع ذلك فسليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشيد الأنشاد الذى لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم ، أما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه إلا جؤار يدفع البشر إلى ربهم ، ويذكر بيوم لقائه ، ومع ذلك فمحمد لا يوحى إليه ، والأشواق وراء الحبيب المنشود هى الوحى المعصوم! ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة ؟ إننى أمقت الذكاء الخبيث ، والثقافة المسفة ، وعندى أن امرأة حصانًا غافلة أشرف من مومس عبقرية ، وأن رجلاً ساذجًا يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه ؟!

وقد أفهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : «النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأصنام! فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الوثن؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن يجهل»[2] .

والحضارة الغربية ، كما قلنا آنفا ، اتسع علمها وضاق أدبها ، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع أجيالاً لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب ،

(١) إبراهيم : ٤٢ - ٤٤ .
(٢) الحديث رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرابته له شاهد من الصحيح .

وتؤمن أنها لن تحيا مرة أخرى أبدا ، ومن هنا غلب عليها هذا السعار فى اقتناص الموجود ، والركض وراء المفقود ، والحقد على من وجد ، والازدراء على من فقد!

إنها لا تؤمن بالله واليوم الآخر! ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة! إن كانوا هودا فهمهم الأكبر امتلاك أرض الميعاد كما يحلمون ، وإن كانوا نصارى فهمهم الأكبر استعادة قبر المسيح والثأر ممن أخذوه فى العصور الوسطى . .

وما يدور فى ذهنهم تعاون عام لإبقاء الأرض موصولة بالسماء ، فهل هذا تقدم علمى أم نجاح للغرائز الهابطة والأغراض الدنيا ؟ . . .

على أن القرون الأولى لم تخل من علم أثارت به الأرض . وزينت به الحياة! والمنكور هو انعدام التوازن فى أية حضارة بين جوانبها المادية والأدبية ، لقد بنى المصريون الأهرام ، والبناء فى ذاته ليس عيبا ، وإنما العيب أن تهلك أسرة فى سبيل بناء مقبرة الملك! وبنت عاد قصورًا شامخة ، وأبراجًا عالية ، فإذا اصطدم برغبتها أحد سحقته ، وأغراها جبروتها بحرب الإبادة ، فكان من قصص القرآن عنهم ﴿ . . . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(1) .

ورفض هؤلاء وأولئك تقوى الله ، وسماع الناصح الأمين فماذا كانت العقبى؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾(2) .

إن هذه المدنيات البائدة قامت على علم له بحاجات الناس يومئذ وفاء ، ولقد اغتروا بهذا العلم وحسبوا أنهم يسبق بهم ولو أثقلهم الهوى ، وهيهات ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . . . ﴾(3) .

إن العلم مهما تقدم لا يغنى عن الإيمان ، والإيمان الذى نحترمه هو الذى يعانق العقل وتزدان به الحياة .

(1) الشعراء : ١٢٨ - ١٣١ . (2) الفجر : ٦ - ١٤ . (3) غافر : ٨٣ .

٤٥. لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة، وما ضرورتها؟

أئمة الفقه الإسلامى المشهورون أربعة ، وقد كانوا قديمًا ضعف ذلك مرة أو مرتين ، بيد أن الذين رسخت مكانتهم وخلد ذكرهم أولئك الأربعة ، الكبار أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل !

أكان ذلك لمصادفات عارضة؟ أم تم وفق سنة البقاء للأصلح؟ لا تعنينى الإجابة وإنما يعنينى القول بأن أولئك الرجال الأربعة كانوا قممًا فى التقوى والمعرفة ، والنصح للأمة ، وإقصاء مشاعر الرغبة والرهبة مع كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته . .

والخلاف الفقهى أول أمره كان علامة صحة ، ولا ضير من بقائه إلى آخر الدهر مادام لا يعدو حدوده! وحدوده هى دائرة الأعمال الفرعية .

أما أركان الدين ومعالم الإيمان ، ودعائم الأخلاق ، ومعاقد الشريعة ، فهى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم . . .

والذى ضخم الخلاف الفقهى ، وشغل الناس به على نحو مستهجن أمران :

أولهما : جهل الغوغاء ، وفرح الواحد منهم بحكم عرفه ، ومغالاته به كما يقول الناس فى مصر : «الكعكة فى يد اليتيم عجب» ؛ ولذلك ترى هؤلاء يقدمون فقه المضمضة والاستنشاق على رعاية العهود والأمانات! وهذا ضلال مبين .

والأمر الثانى : طول أجل الفساد السياسى فى تاريخنا ، فقد أخرس الألسنة عن الكلام فى الفقه الإدارى والدستورى والدولى ، وضمانات الشورى والمال العام ، وأغرى أهل البطالة بالثرثرة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية «وضع اليدين» فى أثناء الصلاة ولا تحرك بقوة لضرب الاستعمار المغير ، ومحو الأسباب التى جلبته . .

ولو تعاون المسلمون على تنفيذ ما اتفقوا عليه - وهو لب الدين وجمهرة تعاليمه - لكان الخلاف فيما وراءه شيئًا لطيفًا وظريفًا ، ومصدر تراحم لا خصام .

والأئمة الأربعة كما أسلفنا القول رجال كبار ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا فرض أحدهم نفسه على الأمة ، ولا كلفنا شرعا باتباع واحد بعينه منهم .

وإنما نحترمهم ؛ لقول رسول الله ﷺ : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» .

وأحب أن أعرض نماذج متناثرة للخلاف الفقهى تومئ إلى طبيعته وعلته ، أما التأصيل العلمى لأسباب الخلاف فقد شرح فى أماكن أخرى .

هل القاذف الكذاب نقبل شهادته بعدما تتم توبته؟ . . . من الأئمة من يرفض شهادته أبدا وإن تاب ، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

وأصل المسألة تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾[1] .

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقى الحرمان من الشهادة على التأبيد . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجملتين معا ، وتقبل شهادته ليكن هذا أو ذاك ، فلا حجر على فهم !

والتائبون من جريمة قطع الطريق ، إذا استسلموا قبل إلقاء القبض عليهم ، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة ، أو الزنى؟ إذا تاب؟

من الفقهاء من أعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، وأوقف الحد ، جاء عن أنس بن مالك : كنت عند النبى ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حدا فأقمه علىَّ ـ قال : ولم يسأل عنه ـ فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبى ﷺ ، فلما قضى النبى الصلاة قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حدا فأقم فىَّ كتاب الله!! قال : «أليس قد صليت معنا؟ قال: بلى! قال: فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك»!

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة إقامة الحد رافضين القياس ومؤولين الحديث الوارد . . لكلٍّ رأيه ولا تثريب على أحد . .!

(١) النور : ٤ ، ٥ .   (٢) المائدة : ٣٤ .

وفى فقه الأسرة نقرأ شريعة الخلع! ولا أدرى لماذا أهملت؟ ولماذا كان القضاء يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارهة إلى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية؟ خلاف بين الفقهاء ، وظاهر القرآن أن الخلع فسخ ؛ لأن الله سبحانه يقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾[1] ثم يقول : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[2] وفسر التسريح بعد ذلك بقوله : ﴿ . . . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾[3] .

وقد توسط الخلع أحكام الطلاق بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[4] .

فالظاهر أن رد المرأة للمهر الذى قبضته عود فى العقد! ويحكم القضاء بالفسخ .

ويرى آخرون أن الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للإشهاد عليه ، والحق أنى حائر فى ذلك مع قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[5] .

كيف يكون الإشهاد نافلة مع هذه التوكيدات؟ ويغلب على ظنى أن التقاليد التى ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير فى هذا الاضطراب .

إن التحقيق العلمى يوجب احترام شريعة الخلع التى أهملت ، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق .

ونترك فقه الأسرة إلى طرف من فقه العبادات ، إننى قضيت ردحا من الزمان أعمل فى المساجد ، ورأيت مظاهر الخلاف بين الأئمة الأربعة : هذا يقنت فى الفجر وذاك يصمت! هذا يصلى نافلة قبل المغرب وذاك يأبى! هذا يحيى المسجد فى أثناء الخطبة وذاك يجلس! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراء الإمام وهذا ينصت! هذا يقبض يديه إلى سرته ، وهذا يقبضهما إلى صدره ، وهذا يسدلهما إلى جنبيه!

قال لى صديق : أيسرك هذا التفاوت؟ قلت : كنت أوثر وحدة الصورة ، لكنى أدع الوضع كما ترى ؛ لأن عنايتى بالموضوع أكثر من عنايتى بالشكل ، الآن هناك وجهات نظر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت ، أكره الاصطدام بها . . . .!

(١) ، (٢) البقرة : ٢٢٩ .   (٣) البقرة : ٢٣٠ .   (٤) البقرة : ٢٢٩ .   (٥) الطلاق : ٢ .

المشكلة ليست فى هذا الخلاف الفقهى ، إنها فيما وراءه من غلو وتعصب ، فالذى يمنع القنوت فى الفجر وبعض جماعة القانتين يظن أنه استنقذ القدس من براثن اليهود! ومنع بدعة تقود إلى النار!

المشكلة فى الضحالة الفكرية والضغائن النفسية التى تغلف أولئك الناس ، وهى آفات تفسد الطاعات ولا أحسب أن صلاة تقبل معها !

إن هؤلاء المتعصبين يعيشون داخل حجب سميكة ، كما يعيش الكتكوت داخل قشر البيضة قبل الفقس لا يرى أرضه ولا سماءه إلا هذه الدائرة الضيقة . . .

والدين بداهة غير هذا ، الدين لا خلاف فى عناصره قلب خاشع وفكر فاضل ، وأمانات مرعية فى تقلب المرء على ظهر الأرض منذ رشد إلى أن يلقى ربه !

ليختلف المسلمون فى الفروع العملية وراء أئمة أربعة أو ثمانية ، فالخطورة لا تنشأ من الخلاف الفرعى ، إنما تنشأ من فساد الأفئدة والألباب . . .!

على أن الخلاف يحسم ، ويختار رأى واحد حتمًا عندما يتعلق الأمر بالدولة وشئونها الإدارية ، وقوانينها الحاكمة فى الدماء والأموال والأعراض!

لنفرض أن فقيها يرى أن طلاق البدعة يقع ، وفقيها آخر يرى أن طلاق البدعة لغو ، فهل تقف أجهزة الدولة فى انتظار غلبة أحد الاجتهادين؟ إنها لن تدور أبدا والحالة هذه!

وإثبات الطلاق لابد من تدوينه فى سجلات ومن رعايته فى النسب والتوارث!

ومن حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا لتدير الأمور على أساسه ، وتحفظ الحقوق وفق نصوصه . .

هل المخدرات خمر يعاقب على تناولها أم لا؟ من حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا تجرم به تناول المسكرات والمخدرات جميعا ، وتهمل المذاهب الأخرى .

ويطرد الأمر بالنسبة إلى قضايا القتل مع اختلاف الدين ، ومع الملابسات الأخرى .

ويمكن أن يتغير القانون ، وأن تترك الحكومة مذهبا وتؤثر عليه آخر ، وذلك وفق نشاط الاجتهاد الفقهى ووزن الناس لمصالحهم المتجددة ، وذاك ما نشرحه فى فصل آخر إن شاء الله .

٤٦. ما مدى حرية الفكر فى الإسلام، وكيف نوفق بينه وبين قتل المرتد ؟

هناك فرق بين حرية القول وحرية الشتم! وحرية العمل وحرية الإيذاء! أنا أقول ما أشاء وأفعل ما أشاء ، ولكن تقف مشيئتى عندما تبدأ حرية غيرى وحقوقه . .

وقد اقتنعت بأن كمال الإنسانية وارتقاءها منوطان بوفرة الحريات الصحيحة ، واستطاعة كل إنسان أن يتمتع بها دون مشاكسة أو افتيات . .

وقد قلنا فى فصل مضى : إن حرية المرء هى الوجه الآخر لعبودية الله وحده ، فالمؤمن حقا رجل تختفى من حياته رهبة الطواغيت ، ويقول ويعمل غير مكترث إلا برضا الله وحده . .

وحرية الفكر هى المهاد الأول ، أو المهاد الأوحد لمعرفة الله ، واستكشاف عظمته ، وتقرير حقوقه ، وإدراك هداياته . .

عندما أسرح بعينى فى الزروع والثمار استجابة لأمر الله ، ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾[1] فأنا أسبح الله وأحمده وإن لم يتحرك لسانى بكلمة !

قد يكون هذا التسبيح الصامت معادلا لركعتين من النوافل ، وربما نما وأضحى معادلا لركعتين من الفرائض! ، وذلك حسب قيمة هذا الفكر .

قد يكون تحية إعزاز لمن أبرز الحياة من الموات ، وأخرج ألوانا وطعوما شتى من أرض داكنة هامدة !

وقد يكون ـ إلى جانب ذلك ـ عناية بالحصائل الناتجة ، وتكثيرًا لها ، ودفعًا للآفات عنها ، ونفعًا لعباد الله بها ودراسة ذكية للتربة ، وطبيعة العمل فيها وإمكانيات الإفادة منها . .!

المهم فى الجو الدينى الصحيح ألا أثقل العقل بما يؤوده عن الفكر المثمر ، أو هذا التسبيح الصامت . .

(١) الأنعام : ٩٩ .

والتدين المخترع والفاسد شديد المهارة فى صرف المؤمنين عن العمل العقلى والقلبى ، وتعليقهم بأشكال ورسوم وأوراد ما أنزل الله بها من سلطان .

مع أن هذه الأعمال ركن فى الإيمان ، وغيرها إما بدع ، وإما نوافل لا تقبل إلا بعد اكتمال الفروض!

ليس هذا استطرادًا ، وإنما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التى اطردت الآيات فى القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها . . . ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها . .

وقد ظفر أسلافنا بأنصبة كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زمانا طويلا . .

ورأيى أن هذه الحرية خرجت على نفسها أو تحولت إلى فوضى خلقية فى بعض الميادين ، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربى . .

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامى بالبحث فى ذات الله - متأثرا بالفلسفة الإغريقية - ويترك البحث فى المادة وخصائصها ، وعندى أن الجانب الطبى فى ثقافة ابن سينا ألمع وأضوأ من الجانب الفلسفى! وأن الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد ، وامتدت حيث يجب أن تنكمش ، على أنها اعتلت فى العهود المتأخرة ، وكادت تموت ، وذلك تبعا لاضمحلال الحرية السياسية فى حياتنا العامة ، وغلبة الحكم الفردى .

والحريات كالفضائل يقوى بعضها بعضا وينميه ، ومع ما أصاب الحريات إجمالا من علل ، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج ، وما أحسب دارا أخرى غير دار الإسلام ، يقع فيها هذا التسامح!

لقد كانت الحرية الدينية أعصى الحريات على النقض ، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض ، وكان يهود اليمن مرعيى الزمام مصونى الحقوق! وبقوا وافرين حتى التحقوا بإسرائيل!

ومن الطرائف التى يحكيها الأدباء أن الخوارج اعترضوا نفرًا من الناس ، وأحبوا أن يتعرفوا هويتهم ، وكان فيهم أبو حنيفة ، فأسرع يجيب الخوارج : نحن مشركون

مستجيرون! فلما تركهم الخوارج يمضون لشأنهم قال الإمام الفقيه : إن القرآن يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾(١) فأسمعونا كلام الله وأبلغونا مأمننا . .!! وفعل الخوارج ذلك ، ونجا أبو حنيفة ومن معه من الفتك !

والقصة تستدعى التأمل! ولئن كانت مثار ريبة عند البعض ، إن التاريخ الإسلامى يصدق دلالتها ، ويكشف عن العلة فى بقاء الطوائف الكافرة بالإسلام وسط بحر مائج من الأمم الإسلامية ، مما لا نظير له فى القارات كلها . . .!

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض : هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة ، فإذا نال مبتغاه منها وتحولت عاطفته عنها رجع إلى دينه الأول . .؟

أو من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء أمته ، وينقل إليهم أسرارها ، ويتآمر معهم على مستقبلها؟

إنه لابد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر! فالمسافة شاسعة بين المعنيين !

وقد ذكرنا فى موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هذه الحرية المتاحة لضرب الإسلام وصرف الناس عنه ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢)! فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع هذا العبث أو ينجح هذا التلاعب؟

إننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد ، وسر الموقف الحاسم منه . . .

معروف أن الإسلام عقيدة وشريعة ، أو بتعبير عصرنا دين ودولة ، والدولة التى تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول فى أرجاء الأرض ، فهى تنشر الأمان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله تبارك وتعالى . . .

وهى تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الأخرى . . .

---

(١) التوبة : ٦ . (٢) آل عمران :٧٢ .

والسؤال الذى نورده : هل يطلب من هذه الدولة أن توهى خطوط الدفاع فى الداخل والخارج ، وأن تدع من شاء حرا فى نشر الفتن وتمزيق الصف ومساعدة العدو وخذلان الصديق؟ أم لها أن تضرب على أيدى الخونة حتى يبقى كيانها سليما ؟

إذا كانت الدولة الشيوعية تقيم التعليم العام على الإلحاد ، وتنفى أو تغتال من يريدون بناءه على الإيمان ، فهل الدولة الإسلامية وحدها هى التى تطالب باحترام الإلحاد ، والإسراع فى إجابة مطالبه باسم الحرية؟ أنّى يتماسك لها بعد ذلك كيان؟

قد ينحرف امرؤ فيشرب خمرًا أو حشيشًا ، هذه معصية نرجو لصاحبها المتاب ثم نؤدبه بما رسم الإسلام! هل يستوى هذا المسىء مع رجل يدعو إلى ترك تجارة الحشيش حرة ، وإلى فتح الحانات دون عائق ؟

قد يواقع امرؤ منكرا فى بيته ، من وراء جدار! هل يستوى هذا مع آخر يجاهر بإباحة البغاء ، وترك الغرائز تتنفس كيف تشاء ، ويرى أن الشذوذ لا حرج فيه ، وعلى المجتمع الاعتراف بعقد بين شخصين من جنس واحد؟

قد يتكاسل امرؤ عن الصلاة ، فهل التارك المتهاون يستوى مع آخر يهاجم فرائض الصلاة والصيام ، ويقول : إنها تعطل الإنتاج؟

إن الارتداد نقض متعمد متبجح للأسس التى يقوم عليها المجتمع ، وللدستور الذى تقوم عليه الدولة ، والزعم بأن هذا المسلك سائغ زعم سخيف .

وتزداد خطورة الردة على كيان الدولة إذا علمنا أن الغزو الثقافى ظهير وتمهيد للغزو العسكرى! وأن أعداء الإسلام يرون محو شخصيته فى الداخل بفنون من الحيل ، وأن الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح . .

نحن نرفض كل عائق أمام حرية الفكر ، ونضع كل عائق أمام حرية الهدم ، أى أمام تقويض الإسلام شريعة وعقيدة . . .

وعندما ننظر إلى تاريخنا الإسلامى الطويل نجد أن قتال المرتدين إلى آخر رمق تم دفاعًا عن الدين والدولة معا ، وما سمعنا برجل قتل مرتدا ؛ لأنه ترك الصلاة مثلا . . بل على العكس رأينا أبا نواس يرفض من يلومه فى شرب الخمر ، ويقول فى وقاحة :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء !!

فهل قتل أبو نواس ، أو غيره بتهمة الردة؟

واضطر صلاح الدين الأيوبى إلى قتل صوفى يدعو إلى مبدأ وحدة الوجود! وذلك ؛ لأن عصابات الباطنية التى اعتنقت المبدأ ، تعاونت مع الصليبيين المهاجمين على ضرب الدولة ، وكانت حصون الحشاشين شوكة فى ظهور المجاهدين الذين يقاومون الغزو الأوربى المميت!

فلم يجد القائد الإسلامى بُدّاً من تطهير الجبهة الداخلية ، وإزاحة كل من يعرض مستقبل الإسلام للضياع ، فى حرب حياة أو موت . . .

وإلا فإن كتب كثير من رجال التصوف ملآى بفكرة الوحدة ، وقد ترك للعلماء أن يناقشوها بالبرهان وحده !

وقد لاحظت أن كثيرا من أهل الشغف بتكفير مخالفيهم ، يتخيرون من آراء الفقهاء ما يحلو لهم ، ويهيلون التراب على غيره ، فلما ثار كلام فى عقاب تارك الصلاة كسلاً ، لم يذكروا إلا أنه يقتل حدا أو مرتدا ، ومعلوم من الفقه الحنفى الذى حكم الدولة الإسلامية قرونا طويلة ، أنه لا يقتل لا حدا ولا مرتدا ، بل يؤاخذ بأساليب أخرى إذا جحد الحكم المعلوم من الدين بالضرورة . .

إن الارتداد ـ كما شرحنا ـ خروج على دولة الإسلام بغية النيل منها ومنه ، والإتيان عليها وعليه ، ومقاتلة المرتدين ـ والحالة هذه ـ دين . . .